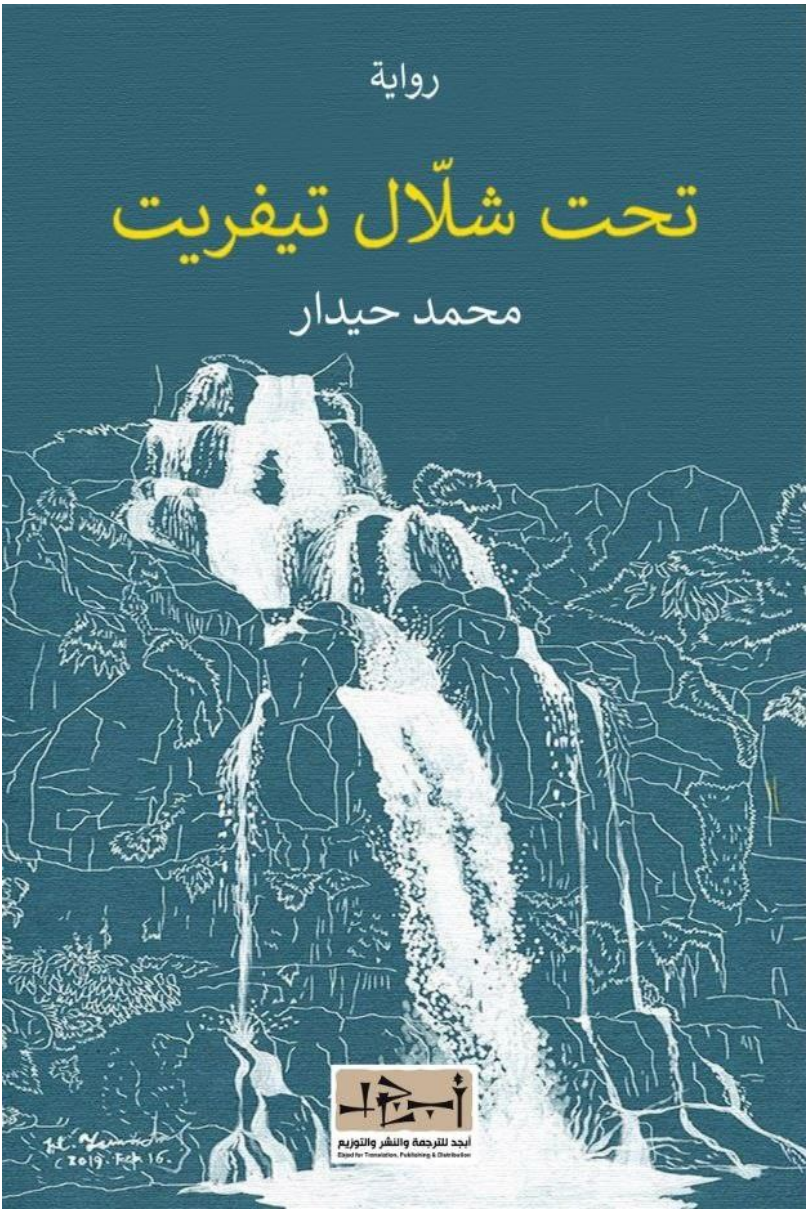
رواية
تحت شلّال تيفريت
محمد حيدار
أبجد للترجمة والنشر والتوزيع
2019. Feb 16.

تحت شلال تيفريت

رواية

الكتاب: تحت شلال تيفريت
المؤلف: محمد حيدار
التصنيف: رواية
تصميم الغلاف: الياس سلام
التنسيق الداخلي للكتاب: مؤسسة ابجد
ISBN:

الطبعة الأولى
2022
مؤسسة أبجد للترجمة والنشر والتوزيع
العراق – محافظة بابل – الحلة – شارع اربعين
جوال: **009647831010190**
info@ebjed.com

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الانترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الناشر.

الفضـاء الأول

الفصل الأول
بوابة الكون الأخر

الأصيل يتحفز للرحيل قبل أن تكمل طريقك، وإليك ترامت أعالي التلال السلكسية شبه متعانقة، وبالتدريج قد علت قممَها طلائعُ ظلام أخذت في إنزال أكوامها القاتمة، أعاد سهل تيفريت رسم انحنائه كما لو أنه يتمطط، فبدا لك حصنا ممتقع الحفاف، ومغاراته السبع تكابد ثقيل صمت كأفواه نيام، ومن أمامك أخذ الليل يُلقي بسمرته على الأفق القريب، وسمعك لا ينتقي من الأصوات إلا أزيز محرك سيارتك التي تقلّك وقد أخذ يتشكل في نغمات غير جشة ولا مزعجة كما كان عليه حالها قبيل الغروب، لقد أضفى المساء على صوت المحرك عذوبة ما، محببة إليك ومشجعة على مواصلة السير.

السيارة قد انفصلت عن السهل الخصيب، وها أنت الآن تجتاز جسر الوادي حيث تتعانق فصائل من أيك أشجار ظهرت كما لو أنها رؤوس حاسرة لا يظهر منها سوى ما يشبه الأشباح، لتسلمك إلى ممر وحيد أتاحه المنحدر كطريق مُلقى على أعناق الأحراج، وسرعان ما اتجه بك المنعرج الطويل بدوره إلى منتهى أعالي السفح، والسفح لا تتشكل قاعدته السفلى إلا من كهوفه الأثرية، كهوف تيفريت التي لطالما حدثك عنها زوارها،

قيل إنها عاشت تحت تاريخ بعيد غير الذي أنت فيه، وسبقت زمانك بآلاف السنين، عاصرتْ ظهور الإنسان أو عهد استيطانه للكهوف والمغاوير على الأقل، عهد التكهيف وعكست رسومها بيئة الإنسان الصياد وفترته بالتحديد.

رغبة جموح تشتد بداخلك لزيارتها، صحيح أنك تتعشّق مآثر ما اندثر ومكتشفات الأثريين يشدك جديدُها، ولكن كيف؟! والليل يقيم قواتم أسوار من حول الكهوف النائمة؟! بل إن منحط الوادي الذي يحتضنها لا يبدو إلا كقبر مفتوح في ليلة ظلماء شبيهة بالتي أخذت تظللك، وفجأة غزا سمعَك متواني اختلال في رنات المحرك.

- ماذا حدث؟

سألت نفسك أو سألت السيارة وما من مجيب، كل المستجد هو أن خرير الشلال قد استغل تراجع حدة المحرك ليسمعك هديله بدوره، إنك على مقربة منه إذن، أهي أصوات ترحيب يزفها إليك؟ أو نداء ت إنذار وتحذير؟ من يدري؟ ولم تُطل الاستماع إلى أغاني الخرير لأن المحرك كان قد أسلم أواخر أنفاسه فعلا وأنهى زفيره سكون مباغت، وكأنه يمنح الشلال قيـــادة الجوق الذي سيُحي ليلتك تلك، ودون إبطاء تراجعت شحنة البــطارية فانعكس ارتداد قوتها على حدة الأنوار التي بدت شاحــبة، وإلى هــنا انتابك الذعر، ولا أحد على الطريق إلاّك، فسيلان المرور كان قد انقطع مبكرا كعادته ومنذ لا تدري دون أن تتفطن إليه، لقد كنت في غنى عنه أثناء سيرك النشط سواء آنقطع أم استمر، أما الآن وقد صرتَ في حالة توقف فما أحوجك إلى من يشغل الطريق إلى جانبك.

إن الوضع قد صار على ما ترى، فهل ستغادر السيارة لتتحقق من طبيعة الخلل الذي أصابها؟ وهل سيكون هذا بإمكانك والظلام يُمسك باليد؟ فضلا

عن أنك لا تتوفر على أدنى خبرة في تقانة السيارات؟ أم ستستسلم للعجز بداخلها إلى أن يأتي صباح غير منظور؟
انهمكتَ في محاولات جس نبض مفتاح الاتصال والضغط على المكبح، وتحريك دواسة السرعة، ثم استدرار زر الأنوار وكما لو أنك طبيب أعلنت في لحظة كئيبة موت كل الأعضاء.

على مرمى السفح النباتي الذي كان مع الأصيل مزدانا ببقايا الربيع لا شيء تراه الآن سوى الظلام، وقد ركبه ظلام، لقد اختفى منظر السهل بدوره بعد أن استهوتك تركيبة أغصانه وهي تتقاطع في حنو قدامى عشاق، وفي صمت كان يمتد وارف ظلاله كما لو أنه يردع لفح هجير وإلى أسفل ،وفي دقيق نظام، تتصبب قمة الهضبة خيوط ماء لجينية، ولكن لا شيء من ذلك تراه الآن.

ما هو مؤكد لديك أن بأسفل تناغم الخضرة ترقد أحاديث الوادي، تتوسد أحاجي الغيالم، وترانيم أولى المعابد البدائية تطفو على السمع لا تفتأ، ولو أنها افتقدت معالم هندستها ولم تخلف إلا بقايا من مادتها، إنه زمن لم يكن لليد البشرية دخل في صناعة المأوى لكن ما كان يتردد بها لأحقاب وأحقاب لما يفقد بعد علاقته بمتخيل السمع.

وخلف أسماع الكهف الأعظم نامت كتابات الصخر، وانحنت صور وأزاميل نحت لا تحمل اسم فنان، أميرة الكهف الأعظم كالـموناليزا، لم يقرأ تفاصيل شفتيها إلا عرّاف الوادي الذي بجّلته الأساطير، قيل إنها وفدت مع انقشاع الجليد! وقيل إنها نامت على ثدي لبؤة اتخذت من المغارة عرينا فألهمت إنسان تيفريت متعة اللجوء إلى الكهوف والاحتماء بها، ومن يومها أصبح من غير المفزع أن يصطحب إنسان الوادي أسدا، أو شبلا، أو لبؤة، أو فهدا، أو نمرا حتى، ومبكرا دحضتْ الجدة قيل القائلين بقولها:

- كهف تيفريت تسكنه جنية، ابنة بن الأحمر.

يومها التبس عليك الأمر بين بنت الأحمر هاته وماكنتَ تتعلمه بالمدرسة في مادة التاريخ عن ملوك بني الأحمر كأخر وجود رسمي للعرب والمسلمين في الأندلس، هل الجدة تخلط بين تيفريت وغرناطة؟ أم أن صاحبة كهف تيفريت هي أميرة أندلسية استوطنته بعد تهجيرها؟ أعادك صوت الشلال إليه، والشلال منذ أحقاب التيفريتيين الأوائل لا يعزف إلا شجي ألحان لايزال، في عزفه تلمست فتاة الكهف آهات عشق تولّى وربما تراجع جلال انتشائه، قالت أحاجي الأمس:"إن خرير الشلال كان هأهأة غنائها حين تفرح، ونشيج بكائها إذا حزنت، وأبناء الوادي يتعشقون سماع صوتيها المحزن والمفرح معا" وذكّرك ذلك بنائحة أبي العتاهية.

- أميرة الكهف جنية من بنات بالأحمر.

هكذا قالت جدتك حين واجهتْ السؤال إبان ليالي الحكي الأولى، ليلتها أغمضتَ عينيك رهبة لأن الليل أخذ يرسم شبح ابنة العالم الذي لا يُرى، على امتداد التلال الدائرية أقام الظلام مواقع له، وخضرة الشـــجر تُمعن في استقباله، وتحت إلحاح سواده تخلت طيور مرت من هناك عن شقشقتها، أما أنت فإلى كل من خرير الشلال وحديث الماء أنصتّ بإمعان لكن؟ ما لذي يحدث خارج السيارة؟ إنها شبه جلبة! وقبل أن تُحسم خواطرك أخذتْ تحيط بك مجموعة من الرؤوس، رؤوس بشرية فعلا أم؟ أم تراها قطيع من الخنازير؟ أم ماذا؟ ولعنت سمك الظلام إنك لا تدري أصارت قريبة منك هذه الرؤوس أم بعيدة لاتزال؟! لعله خوف يركبك فحسب؟ لكن! المخيف في نظرك هو أن الأشباح المحدقة بك أخذت تقترب من السيارة بل ومن الجهات الأربع وفي نوع من التوازن ينتظم خطو أفرادها، قلت لنفسك وأخذت تسألها بصوت يكاد يسمع: " هل هو كمين حاجز افتراضي؟ قوات نظامية؟ ميلشيات دفاع؟ مجموعة

مسلحة؟ عفاريت؟ أرواح أموات؟ وكلها أصناف تتمايز في اللباس والسلاح وقد تُوشّح إحداها الطريق في كل مساء، بل وفي أية لحظة فالطريق في هذه التسعينيات الرهيبة لم يعد يتسع نهارا لمن هو أعزل مثلك إلا في أحيان نادرة فكيف به ليلا؟ إذ لعلك وحدك من نزل عليه ضيفا، إن الليل هو الذي يحاصرك في الواقع بحيث يدفع بك إلى ما يشبه الاستسلام المبكر قبل نشوب أي مناوشة أو حوار.

لولا الليل لأمعنت النظر في وجوه الأشباح وقد دفعها فضولها إلى أن تتحلق بك في ثقيل صمت، ولتأكدت من هويـــــــتها، فالظلام والأكمة الشجرية الكثيفة التي تقبع على أعلاها يضفيان على الأشباح أبعادا غير قابلة للقياس، هل صرتَ أيضا تتسمّع ما يشبه الهمس وقد انبعث من بينهم؟ ليسوا قطيعا من الخنزير البري كما توقعت إذن، وما أن بلغ تخمينك هذه الحقيقة حتى استرجعتَ كل مخاوفك الأولى، ومن لحظتها ودّعت اطمئنانك لتدخل طور الهلع الجدي.

ما الذي أخرجك مساء من مدينتك "سعيدة" على غير عادة منك؟ كان في إمكانك أن تنطلق باكر الغد نحو مكان عملك بجامعة المدينة المجاورة "تيارت" أو "تهارت" كما يحلو لك أن تحتفظ بأقدم أسمائها، صحيح أنك عارف ببعض تفاصيل وادي تيفريت، مُلمّ بجوانب من تضاريس هذه التلال، لكنك لم تواجه موقفا من الغموض كالذي أنت عليه.

ماذا ترى؟ أو ماذا تحاول أن ترى؟ هل هي أزياء ترتديها الأشباح؟! إنها عديمة التناسق، بل لعلها من خام الجلد أو لحاء الأشجار ما أقرب ما ترى إلى أشكال العفاريت، هل هم حراس ابنة الأحمر التي أبلغتك الجدة حكايتها أكثر من مرة أيام الصبا؟

المكان منذ معرفتك به لم يكن مخيفا إلى هذا الحد، وما هو بحمّال مفاجآت كتلك التي يفاجئك بها الليلة، إنه مضيق تتقاطع بمنتهاه مهاو سحيقة الأسافل

إلى أن تنتهي عند عتبات كهوف الآثار غربا، والكهوف؟! هل هي مسكونة بالمعنى المجازي للكلمة؟ هل هم عفاريتها وقد صادفتَ فسحتهم الليلية؟

أعدت القول في نفسك وأخذت تبسمل، لم تحاول مغادرة السيارة كما هجست في سابق الحال، الأشباح تقترب أو ربما هي تبتعد، لكن مجرد وجودها يزعجك حتى ولو أنها لما تبادرك بأذى بعد، خُيل إليك أن أشجار المنعطف كلها قد استأثرت بها الأشباح، منطقة محاصرة!

وفي طواعية أسلم الليل جزءا منه إلى الماضي
بلا حذر.
واشتدّ سكون الوادي بالأسفل، ونام الطريق تجلّله ظلمة الحجر.
بل ربما الأشجار بدورها نامت
على وجل.
أوعلى ضجر.
كل ما تراه صار نائما إلا أنت وقد شككت في أمرك، هل صرت أنت الأخر في حالة نوم دون أن تدري؟!

وخيل إليك أن باب السيارة انفتح فجأة بقبضة خارجية وأنك أُجبرت على النزول وتم اقتيادك إلى وجهة ما، إنك أيضا معصّب العينين وفي حالة توجس قصوى وكدت تسأل من يقتادك عن هويته قبل أن يتراجع هاجسك أمام السؤال: ولكن من الأحق بالسؤال؟ ويركبك السؤال لايزال:
أنائم أنت؟ أم ستـنام؟ أم تراك في كامل يقظتك؟ أم بيـــن يقظة ومنـــام؟
وبأعلى صوتك كدت تصيح حتى تتأكد لولا أنك خشيت ردة فعل الأشباح ممن يقتادونك فحوّرت السؤال: هل أنت في قبضة أشباح فعلا؟ ما الذي يجعلك واثقا من ذلك؟ ويداك؟! هل هما طليقتان؟ وعيناك أهما معصّبتان فعلا أم هي غشاوة الليل تسد الرؤية؟ بل أين تقع رجلاك الآن؟

أعلى مكبح؟ أم على حجر؟ أعلى مسبح؟ أم على شجر؟ أم على مذبح؟ أم على وتر؟

أنت في حالة سير ما في ذلك شك ولكن إلى أين؟ وبمعية من؟ من يثبت لك أنك غادرت مقعد السيارة؟ وأن إلى جانبك أشباحا قد ألقت عليك القبض أو ما يشبهه؟

حاولت أن تتلمس اليد التي يخيل إليك أنها تمسك على كفتك في عنف المقراض، أحسست بثقل ما يمنعك، عضلاتك تتصلب، لا تقوى على حركة أو على التفات أو على نطق، هل هو كابوس؟ واستسلمت لما تعتقد أنه اقتياد، كان الليل يكتم كل شيء حتى أنفاسك المتصاعدة في ازدحام أحيانا، وثانية خُيل إليك أنك أنت من يسير بالليل أم مـــاذا؟ أو هـــو الذي يسير بك؟ لا فرق، الفرق عندك فقط في إثبات حقيقة السير من عدمها، وإلى هنا أخذت تتذكر مسألة الشك عند بعض من قرأت لـــــــــهم ممن قـــــالوا بعطل الحواس بل وبِخداعها، وها أنت الآن تعيش المفارقة

تسير ولا تسير

تنظر ولا تبصر

تلمس ولا تحس.

وقلت لنفسك: عجبا إذا كانت الظلمة هي التي ألغت قوة إبصاري فمن عطل إحساسي بالسير؟ وباللمس؟ بل ومن أربك لســـــاني عن الكلام؟

كل ما يحيط بك أوهام في أوهام إلا الظلام الذي تتـــأكـــد من حقيقة وجوده ومن سيادته على الآفاق، سيارتك أيضا يكاد شكك يطال وجودها، لم يبق إلا أن توجه إلى نفسك سؤالا لطالما بدا لك مستهلكا وسفيها وهو: هل حللت فعلا بالوادي؟! وإن كنت به، فبأي المواقع منه أنت الآن؟ من ذا قال إنك بوادي تيفريت فعلا؟ وإن هنـاك مـــن يقتـادك؟

كل ما يتصارع بخلدك من ظنون ظل يعلوه اعتقاد شبه راسخ أن ما ينتابك لا يخرج عن هجمة عفاريت، إذ لا فرق ـ في نظرك ـ بين الشلال والمياه الحارة فكلاهما بالنسبة إليك موطن محبب للجن، سواء المياه المعدنية أو المياه الراكدة أو المياه الساخنة، أو مياه الشلالات المحمولة جوا كمياه هذا الشلال، فحيث يكون الاستثناء يستقر الجن.

ولكن أين الاستثناء في شخصك أنت؟ كما وأن الجن لا تصبر عليك طوال هذه المدة ولا تقتاد ـ إن أرادت ـ إلا عقلك فما حاجتها إلى رجليك ويديك؟ أو إلى جسدك لكي تقتاده؟ ولماذا يأتي في طلبك كل هذا الفوج من أفرادها؟ في حين لم يقتض نقل عرش الملكة بالقيس إلى سليمان عليه السلام سوى جهد عفريت واحد؟ كل الأجناس المسلحة التي اعتقدت أن الأشباح قد ينتمون إليها لا تمهلك كل هذا الوقت، بل إنها تعيش زمنا لا تمتلك فيه فائض وقت قد تستنفـــذه في غموض كهذا الذي يحدث معك منذ أن تقضى الغروب، فلو تعلق الأمر بكمين لواحدة منها لكان أفراده قد سارعوا إما إلى التأكد من هويتك من خلال ما تحمله من أوراق ثبوتية، أو شرعوا في استنطاقك أو أخلوا سبيلك.

ودون أن تحدد مصدره سمعت أول صوت أرسله الوادي نحوك، وكان صوتا نسائيا رخيما يردد كلمة واحدة فقط هي:

- تقدّم، تقدّم

فاعتقدت لأول وهلة أنك أمام مركز حراسة، أخذ الصوت يتكرر في تباطؤ وعلى شكل فواصل متقطعة مع كل خطوة تخطوها إلى الأمام وقد ازداد رقة وعذوبة، نعم في إمكان مكان شاعري كهذا أن يرسل بلطائفه إليك أيضا حتى لا يقتصر الاستقبال فيه على الموحش والمخيف وحدهما.

وفجأة كدت تتوقف عن السير وأنت تسترجع بنية الكلمة المكررة الموجهة إليك: "تقدم، تقدم"! هكذا بلغتك التي تتحدّثها، وجازما أكدت لنفسك أنك بحضرة طائفة من بني الأحمر وهم أشرس طوائف الجن كما استقر بذهنك منذ صغرك، إذ لو أن الأمر تعلق بأرواح قدامى التيفريتيين لخاطبك الصوت بلغتهم التي لا شك أنها ـ وإن اقتربت من لغتك في بعض صوائتها وصيغ عللها ـ لن تكونها بذاتها، فالقوم مروا من هنا لأزيد من ثمانين قرنا خضعت فيها اللغة لكل وافد وشارد ودخيل، وحدهم الجن هم القادرون على دبلجة الأصوات بالشكل الذي يناسب إدراك من يخاطبونه إذن، واستمر الصوت إيقاعيا وقد اقتربت نبراته من أصداء خطوك

- تقدم، تقدم

قبل الاستنتاج الذي توصلت إليه كان الصوت مغريا بدعوته، بطراوته، بأنوثته، باتزانه أما الآن فقد أخذ يبعث على الخوف، الخوف من مجهول ستنتهي إليه خطاك ليلا، الخوف ممن يقتادونك دون إفصاح عن هويتهم، الخوف الخوف في زمن مخيف، في مكان موحش والظرف ليل

- تقدم، تقدم.

وراغما تقدمت مَن هاته المرأة التي تدعوك إلي حيث تقيم؟! من أخبرها بمقدمك؟! هل يستخدم القوم هواتف خلوية؟! أهي ابنة السماء؟ أم ابنة ابن الأحمر؟ لعلها ابنة العاصمة المغتالة التي سقط بها أخر السيوف ليلا، ابنة غرناطة؟ غرناطة تلك التي اقترن اسمها منذ ذلك الحين بالسقوط ، بالـمحو بالانتهاء رغم ما بقي مشعا من أطلالها، لكن آلا يكون لتيفريت أميرة ثالثة غير بنت بن الأحمر وبنت غرناطة؟ قول لم يقل به أحد، لم تقل به جدتك ولا معلم التاريخ، فكيف يمكنه أن يحدث خارج المصدرين؟ ولكن!

- تقدّم، تقدّم.

- تقدّم، تقدّم.

الفصل الثاني
أعراس الشلال

ولـكـن؟ ما الذي صرت تراه الآن؟ عجبا إنها نيران ممتدة عبر حافة الوادي؟ إن ألسنتها لمنعكسة على سطح المياه وكأنها تبدد الظلام؟ نعم ليست نارا متصلة بل إنها تنبعث من مواقد شبه متباعدة قد تتابعت إلى أن أخفى تسلسلها منتهى المنحدر، وحول كل موقد منها انتظمت مجموعة من أشباح في حلقات رقص أو سمر أو غناء أو مأتم، أصوات تصلك عبارة عن لغط جمعي مزيج هو من غناء ونحيب، وقد طغى على خرير الشلال فبدا لا يخترقه إلا في وهن.

كان الموقد الذي يتوسط حقل النيران يفوقها حجما، بل وحتى من حيث تطاول ألسنة اللهب المنبعثة منه وهي تقذف بشرر إلى بعيد، تماما كما تميزت حلقة المحيطين به باتساعها ونبرات شدوها، وخُيل إليك أنك أخذت تقترب من مركز النيران هذا مدفوعا بقوة لما تتعرف على حقيقتـها بعد، وعلى ضوء النيران تراءت لك أزياء الأشباح خليطا من جلود الحيوان والفرو ولحاء الأشجار ومواد لم تتبين مصدرها، وكدت تركن إلى الخلف لولا قوة الدفع التي تتلقاها بين الحين والأخر، الخوف الذي يتملكك دفع بك إلى ما يشبه الصراخ بأعلى قواك الصوتية:

- ما هذا؟ من أنتم؟

وانتظرت ردة الفعل التي قد تأتي في شكل لكمة على رأسك ممن يقتادك، أو تثير مجرد التفات من حلقات الأشباح لذعر قد ينتابها.
ولكن ما من شيء قد حدث من هذا الذي توقعت، وإلى هنا تضاعفت مخاوفك، صراخك القوي المزمجر كيف لم يخلف أي صدى؟
هل لأنك لم تصرخ؟ هل خُيل إليك فقط أنك صرخت؟ أم ندت عنك صرخة مبحوحة لم تبلغ أذن أحد؟ لا تدري لا تدري وأجهشت بالبكاء أو بما يشبهه، هل لايزال في مقدورك أن تبكي؟ لا تدري! كل ما يصدر عنك عادة صار معطلا؟ صار مشكوكا فيه؟ هل في إمكان العين أن تستعيض بالبكاء عن حقها في الإبصار؟ أو ليس البكاء هو الأخر من وظائفها الطبيعية؟ بل لعله الأنسب لها في معظم أوقاتها؟ ولعنت الأسئلة، ولأول مرة شككت في سلامة عقلك.
وحين أعدت النظر وجدت عدد المواقد قد تقلص، لم يبق منها سوى سبعة مواقد يتوسّطها هذا الموقد الضخم، الشبيه بنيران فارس المقدسة وقد أقيم لأمر ما قبالة الشلال مباشرة فانعكس لهيبه على صفحة السيلان المنهمر عبر الظلام، هل هي ثنائية النار والماء التي لهج بها فلاسفة الشرق القديم وأدعياء أصل الوجود؟ وما صلتهما بالظلام وقد امتزجتا بداخله؟
نـار؟ وماء؟ وظلام؟
هل هو امتحان للمادتين بغرض معرفة لأي منهما ستكون الغلبة؟ لا تدري، وما من أحد قد يشفي غليل اسئلتك المتدفقة كتدفق هاته المياه من أمامك، أيضا سألت نفسك:"لماذا سبع نيران فقط وليس أكثر أو أقل"؟ ولماذا أوقدتْ على امتداد حافة المياه دون غيرها؟ ثم أعدت لعن الأسئلة مالك ولها؟ لم يكن ما تراه جيشا ولا شبيها بالجيش إذ ما من قوة عسكرية تكشف عن وجودها بكل هذا الوضوح وفي زمن ومكان كهذين، وكدت تصيح:

- من أنتم؟

ما تحسه الآن أن الذهول الذي ينتابك قد لطّف توجسك، أنت منشده فعلا ولكنك لم تعد خائفا، لقد انحسرت خشيتك الأولى فأنت تـــــريد أن تعرف أكثر عن مكامن الموقع وخفاياه.

كان الوادي يعج بأصوات المنشدين لايزال، وقد ارتفعت ممتـزجة باللغط والبكاء يطغى عليها ما يشبه تراتيل جماعية مرسلة نحو الآفاق، عالية الإيقاع.

ربما هي شيّقة رغم رطانة كلماتها، لولا أنها أحدثت اختراقا في بنية السيمفونية الخالدة التي عُرف بها الشلال، فجاء خريره هذه المرة متقطعا مختل الأنغام على غير عادته، ولو أنّ التراتيل غالبا تُماهي إيقاعه من باب الصدفة، أو هي شعيرة اقتضت إخضاع الصوت البشري إلى نبرات الماء، كل ذلك تعيشه وأنت تقترب من حلقات المواقد في غير اندفاع، إلى أن مررت بأولاها إنها حلقة نساء وقد اعتقدت لأول وهلة أنهن شبه عاريات، وكلما أخذتَ تقترب ـ تحت اقتياد الحارسين ـ إلا وأعدت النظر في بعض ما خُيل إليك، عاريات وفي هذا الصقيع؟ لا.لا. إنهن يتأزرن بمآزر جلدية قريبة من لون النار، لكن شعورهن ملقاة إلى الخلف في تفاوت وتباين من حيث الامتداد والغزارة أيضا.

أما حلقة الموقد الموالي فقد انتظمت من رجال فارعي القامات، يا للعجب إنهم يمتشقون سيوفا شبه حجرية يحدث اصطدام كل اثنين منها قرعا إيقاعيا، لعلهم استعاضوا به عن الدفوف ووسائل الإيقاع الأخرى التي يبدو أنهم لايزالون يفتقدونها، وعكس نساء الحلقة الأولى فهم يضعون على وجوههم أقنعة مجلّدة Kكيف يقارع هؤلاء المجانين السيوف في مثل هذا الظلام الحالك دون أن يلحق أحدهم بصاحبه أذى؟

ـ تقدّم. تقدّم

مازالت الدعوة بالتقدم نحو الأمام مفتوحة إذن، إن الصوت ليأتي من منتهى الحلقات كما لو أنه موصَل بمكبرات صوت قد زُرعت على امتداد التلال وباحة النيران.

- تقدّم. تقدّم.
- تقدّم. تقدّم.

الفصل الثالـث
نـــيران المـــــاء:

النيران في مغالبة مستمرة مع الظلام الذي يواصل اشتداده إلى درجة يرفض فيها كل قابلية للاختراق، إلى جانب الآكام المحيطة بالكهوف السبعة يقيم حصونا وهمية، ومن داخل دياجره ينبعث صوت الشلال محدثا ما يشبه الغرغرة في الأعماق، إلى هنا التفتّ إلى الشبح الذي اعتقدت أنه يمسك بذراعك وجازفت بالقول مستغلا حالة الإنعاش التي أخذت تسعف أوصالك المرتجفة بشحنات من الشجاعة، رغم أنك لم تتبين إلا هيئته العامة وقد ارتدى جلد حيوان ما:

- من هؤلاء يا سيدي؟ بل من أنتم؟

كان الصوت الذي تلقيته أجش وكأنه غير مُروّض على النطق بما فيه الكفاية، قال لك:

- نواميس الوادي تُعطي عرّاف الوادي وحده حق الاستماع إلى الغرباء مثلك.
- عرّاف الوادي؟! وأين أجده؟؟
- احتفظ بحيرتك إلى حين المثول بين يديه.

- مـــتـى؟

واستعاد مرافقك صمته فأدركت أن كلمتك الأخيرة بدورها جاءت في صيغة سؤال ومن ثمة لا يحق لها أن توجه إلا للعرّاف.
هل للوادي عرّاف كما علمت وكما قيل؟! وهـل هـــو حفيد من قرأ شفتي أميرة الكهف؟ أتراك بلغت بوابة الأسطورة؟ أم أنـــــــك لاتزال تستلهم المتخيل منها فقط؟
كان الصمت قد لفّ الحارس الثاني الذي يبدو أن وضع الحراسة التي تخضع إليها جعل موقعه خلفك مباشرة، وربما كان طوال السير يوجه نحو ظهرك قطعة سلاح لا يسعفك الظلام على تمييز نوعها أكيد، بل إنك لتتحسسها حين يثقل بك خطوك، وفي أعماقك تساءلت:
- ربما كانت رشاشا أو مسدسا؟ إنه زمن الكلاشينكوف، وليس زمن قوس الإنسان الصياد الذي يعود إليه سكان تيفريت فالكلاش هو مدار الفعل، مدار السوق في أيامك، في راهن عالمك كله.

وحين التفتّ إلى الخلف أذهلك ما ترى لم تكن النيران السبع الموقدة أمام الشلال سوى خط ناري أمامي لسبع نيران أخر، وقد أوقدت كل واحدة منها أمام كهف من الكهوف الأثرية:
- يا للعجب، إنها بدورها سبع ولعلها بعدد كهوف هناك تماما؟!

لم يكن حول النيران الخلفية إلا عدد قليل من الأشباح البشرية التي استصعبت تمييز أشكالها لصغر حجم اللهب بالقياس إلى النيران القريبة من الشلال التي أضاءت ما حولها، ولو أن أحد المواقد الخلفية قد انفرد عنها من حيث الحجم، وسرعان ما اتضح لك أنه موقد الكهف الأوسط ـ لماذا الأوسط دائما أكبر حجما ألأنه يشكل طقسا ما؟ هالة دينية؟

تساءلت ولكن في قرارتك دائما، من تسأل وما من مجيب سوى عرّاف الوادي؟ وعرّاف الوادي كيف ستجده؟ وهل سيجيب؟ لعله لايزال ممعنا في قراءة شفتي الأميرة، وهل هو يقرأها على المباشر أو على النقش؟ وإلى هنا كانت يد حارسك قد أخلت موقعها من على ذراعك فالتفتَ إليه تلقائيا لتجده في حالة استعداد عسكري قصوى كما لو أنه يمتثل لرفع علم، وفاجأته بالسؤال كعادتك:

- سيدي؟ ما الذي سيحدث؟

وانتهرك بعنف:

- التزم الصمت ألم تر أننا دخلنا لحظة الوقار؟

وكدت تُجنّ، كلما تكلم هذا الرجل إلا وفتح لغزا أمامك، إنه فيلسوف لاتنتج كلماته إلا ما يضاعف من إبهامها، أو كمتصوف بلغ أقصى أطوار التجلي فلا نفهم عنه إلا ما قد يحيرنا في رؤاه.

- لحظة الوقار؟ أي وقار؟ واللحظات التي سبقتها؟ ألم تكن بدورها للتعبد وللوقار وللصمت، وللرهبة وللرقص والإنشاد؟؟؟؟؟

وحاولت استفزازه هذه المرة:

- لا أعتقد أنه عليّ أن أنتظر عرّاف الوادي ثانية لكي يُفهمني ما لحظة الوقار هذه يا سيدي؟

ودون أن يتزحزح عن هيئة استعداده أو يعير مرافقه الثاني اهتماما قال لك:

- أو تكتم عني؟
- في الأمر خطورة إذن؟
- نعم مادام تدخلا في شأن عرّاف الوادي.

- سأكتم عنك، هذا عهد.
- وهل للأحفاد عهد مثلنا؟

الأحفاد؟! يا ربي! أية كلمات هاته؟ بل أي توليد لمبهم الكلمات؟ وعمدا تحاشيت إقحام مسألة الأحفاد في الحوار لكيلا تصرفك عن موضوع لحظة الوقار فربما جاء أوان استجلائها هي الأخرى لاحقا،
وأدنا وجهه من أذنك وقال هامسا:
- إنها لحظة خروج الأميرة.

وعلى الفور سألته:
- أميرة الجن؟ ابنة ابن الأحمر؟ أم ربيبة الأسد؟

وخُيل إليك أنه قد ابتسم وقال مصوبا؟
- بل أميرة الوادي.

وإبتلعتك حيرتك! أميرة الوادي؟ عن أي واد يتحدث؟ وهل بهذا الوادي أميرة؟ ما من أحد قال بهذا من قبل إلا مخيال جمعي يتوارث تصورها في غير دقة، فأي الأميرات تكون سيدة الحارس؟ أتراها حفيدة الجن ابن الأحمر؟ أم سليلة بني الأحمر الغرناطيين؟ أم تلك التي قيل إنها رضيعة اللبؤة؟؟؟ وظن حارسك أنك تعرفها، وأخذ الحارس الليلي كأنما يحادث نفسه عن قصد لكي يسمعك كلامه: إذ من ذا قد يجهل أمر الأميرة التي أغربت الأساطير في تدبيج سيرتها؟ الأميرة التي مُنيت جيوش الأمير أطلس بالهزيمة على يدها؟ بل وخافها قبله والده الملك تيم، ملك "تيمطلاس" ذاته؟

أيمكن لبشري مثلك من خارج أسرة الوادي أن يُحظى برؤية الأميرة هكذا مباشرة ومن غير واسطة؟ سأل الحارس زميله هذه المرة وبلغة أخرى قد تكون لغة الوادي فقال زميله:

- أي حظ ساقه إلى واديها إذن؟
- بل ربما أتيح له مخاطبتها أو الاستماع إلى كلامها من يدري؟

غرابة كلماتهما أنستك أن تسأل مرافقك عمن تكون الأميرة من بين الثلاث، ثم عن معنى خروجها، من أين؟ وإلى أين ستتجه؟ ولماذا يحمل الخروج كل هذه الهالة؟

ولعله لحظ بقايا حيرتك فاندفع إلى القول لطفا منه:

- سيدتي ستتكرم بزيارة الشلال للإشراف على أعراسه.

وكدت تسأل:

- أعراسه؟

ثم تراجعت إنك تخشى اضطراب مزاج حارسك فغضبه لا يعني إلا لواذه بالصمت، والصمت لا يبلل حرقتك إلى معرفة ما تشاهد، دعه إذن فربما تطوع من تلقاء نفسه وأفادك بشيء ما.

بصره مشدود إلى الكهف الأوسط، وبكل قامته الفارعة التي عجز جلد السبع عن تغطيتها بحيث لم يبلغ سوى ما أسفل جذعه الأعلى بقليل، وفكرت في ابتزازه فقلت له:

- إن لم تخبرني فلسوف أبلغ عرّاف الوادي بما أفدتني به من أسراركم.

وقال وقد ظننته يبتسم:

- يا لحرمة العهد عندكم!

فهمت من كلام محدثك أن أعراس الشلال إنما تقام في أعقاب كل فيضان اِتقاء لتياره الذي قد يطال الكهوف السبعة وترحيبا بعودة الشلال إلى سابق طبيعته كرمز للصفاء وأخيرا بشرى باستعادة نغمات خريره التي ابتلع رقتها هدير الوادي أثناء غضبة مياهه.
أما إشعال النيران، فدليل على الرغبة في إذابة منسوب الغدران لكي تسمح للمياه باسترجاع لونها وهدوئها وفي هذا انبعاث لأنغام الشلال.

- فالنار رمز الاحتماء الذي يتم اللجوء إليه عند الحاجة.
- أوَ يتراجع الفيضان لمجرد إقامة الأفراح والنيران؟

قلتَ له ولكنه يبدو كمن ضحك وقال:

- بلى، ولكن أيضا بما يتخللها من صلوات وأناشيد وأدعية وتضرع كما تشاهد معي.

وكدت تقول له:

- ولمن تقام هذه الصلوات وترفع الأدعية أللشلال أم للفيضان؟"

إلا أنك أجلت السؤال كدأبك فربما واتتك فرصة ما لتوجهه إلى عرّاف الوادي رأسا، من يدري؟
وقال من تلقاء نفسه:

- هذه الاحتفالات ليست قصرا على انقضاء فترات الفيضان.
- وكيف؟
- انقشاع المواسم الجليدية يقتضي منا ذلك بدوره احتفاء بالأرض حين تستأنف زخرفها، ومثله عودة القناصين بالطرائد سالمين من أذى الوحوش والعواصف.

وعلقت في نفسك:

- هذه الأخيرة من تقاليد قبائل "التمحو" فهل هؤلاء منهم؟

وثانية سألت:

- وخارج هذه المناسبات الثلاث؟
- طقوس دينية عادية قد تحضرها الأميرة أو لا تحضر وحين لا تحضر يتولى إقامة الشعائر ورع الوادي باسمها.
- ورع الوادي؟! وهل للوادي ورع وعرّاف؟
- ولا يغني أحدهما عن الأخر.

وأنت تحاول تجنب إثارته سألته:

- يفهم من هذا أن للشلال معنى دينيا في نظركم؟

كان جادا حين قال وكأنه في وضعية المنشد:

– "الشلال وجه النهر، مرآة عاكسة لتقلب عنوان مزاجه، وحده الشلال من (*) ينذرنا بوصول خيوط الفيضان الأولى، كما لو أنه من (**) يطمئننا إلى عودة هـــدوئـه الذي لا يعني إلا رضاه عنا، لولاه، لولا الشلال لغمرت السيول - في غفلة منـا ـ كهوف إقامـتنا، لذلك نحتفي بقدرته، وبوفائه"

وافتك منك كلامه تعليقا أعربت عنه باسما: –

- هل هذا شعر أم مناجاة صوفية؟

(*)**خاطب "فدّو" الشلال بصيغة العاقل [مَن بدل ما] ربما لاعتقاده بأنه عاقل.**

(**) ** ** ** ** **

- هذه الخواطر ليست من إبداعي، بل هي من محفوظات الصغر، إنها أولى أناشيد الانتماء إلى الواد ي كذلك قال الورع "لول".

من صاحبك علمت أنّ للشلال دورية مناوبة تحرسه من خطر الفيضان لكيلا يُفاجأ سكان الوادي وهم نيام، وأنّ الدورية التي تقوم باحتجازك الآن لم تكن إلا من أفراد الحراسة الليلية للشلال أو كمين الهضبة الوقائي كما يسمونه.

حدّثك الحارس نقلا عن أخر مسني الوادي، انّ نظام دورية النهر يقام منذ أجيال وأجيال قبل مولده، بحيث يعود إلى نهاية أحد المواسم المغامرة التي اقتحمت فيها غضبة المياه سكون الكهوف في منتصف ليلة ما على حين غرة فذهبت بأرواح ومتاع، ومنذئذ فكر الوادي في أمرين: إيقاد النيران لتجفيف غضب المياه، ثم إقامة دورية ثابتة للإخطار المبكر بأعلى التلة أفلحت في تجنيب أهالي الكهوف كوارث مشابهة.

ومن ساعتها أدركت أنّ الحواجز بكل أنواعها ليست بوليدة عصرك وإنما كانت من مكتشفات الإنسان القديم.

العيون كلها مشدودة نحو الكهف الأوسط كما لو أنها منوّمة إلا أنت مما دفع بالحارس إلى الحنق قائلا:

- تمردك سيدفع بي إلى الوقوف منك موقفا غير الذي أقفه.
- وما الذي سأنتظره من الكهف الأوسط؟

وقال حانقـا:

- الأميرة ألا تفهم؟

وفي نرفزة غير محسوبة قلت:

- وهذه الأميرة ألا تخرج وقد مضى علينا من الانتظار ما مضى؟

وأحسست أنك أثرت حفيظته فعلا حين قال في لهجة حادة:
- أو تراجع الأميرة في صنيعها؟
وقلت له هاشا:
- عفوك أيها القائد.

كانت كلمة القائد ذات جرس محبب في إذن الحارس على ما يبدو، مما جعلك تدرك أن الطموح إلى الزعامة لم يكن وليد عصرك بل إنه استكمل جبروته على النفوس منذ هذا الزمن المبكر، زمن الوادي، فالحارس رغم أنه لا يتجاوز رتبة المريد في منظومة العرّاف أو الورع، ومع ذلك لا يغفل إحساسا بالانتشاء كهذا الذي تبعثه في نفسه كلمة القائد.
إنهم أناس لا يقدسون إلا الأميرة والشلال، وتقديسهم للأشياء يعفيهم من التفكير في أصولها هكذا استنتجت، لا فائدة من السؤال عن حقيقة الأميرة أو سر ارتباطهم بالشلال لأنك لن تسمع فوق ما قال الحارس، فالشلال يستعيد صفاء مياهه بواسطة النيران والأميرة هي ابنة الكهف هو ذا منتهى فلسفتهم.
وقبل أن تنتبه إلى اختفاء الصوت النسائي الذي رافق خطوك سابقا من خلال كلمتين متزنتين متتاليتين:" تقدّم. تقدّم" ثانية ناوشك السؤال، عن أية أميرة يتحدث هذا الرجل؟ إن كان لا يعني لا سليلة اللبؤات التي وفدت مع إحدى الأماسي لتقضي ليلتها برحاب الكهف الأكبر بعد أن ارتوت من مياه الشلال قبل أن تختار قضاء بقية حياتها بالوادي؟ ولا هو يعني عذراء القرص الأحمر التي قيل إنها اتخذت من مسقط الشلال مأوى لها ولقومها بعد أن انتهت إليه رحلتها انطلاقا من أبعد زوايا السماء؟! وأيضا لا يعني تلك التي انطفأت أنوارها الأندلسية لأخر مـــــرة في قصر الحمراء وسط اشتداد جلبة وصياح وصلصلة سيوف ؟؟؟
تقـــدّم. تقـــدّم.

تقــدّم. تقـــدّم.

الفصــل الرابـع
لحظة وقـــــار

صيحة مدوية قد انبعثت من غربي الوادي كادت تقتلعك من مكانك، إن دويها ليأخذ بمجامع وعيك، شبيهة هي في نبراتها بصوت من يطلب النجدة إنها زمجرة تصاعدت في شكل خليط من تأوه حيواني ـ أدمي، بدنك قشعريرته في تصاعد رأسي، وبسمعك اشتداد أزيز، وبعينيك ذعر لم تتوقعه، وهرعت إلى سؤال لكنه انكبت هربت إلى الانشداه، إلى الصمت إلى الخوف، وددت لو أن رجْعها يتوقف، كيف احتفظ به حسك طوال هذه المدة؟ كيف اختزنه كشاحن كهربائي لا تنفذ طاقته؟

والصيحة قد اخترقت جدار الصوت من يمكنه إطلاق هاته الصيحة التي أطبقت على مسامع الآفاق؟ صيحة من تكون؟ ليست بزمجرة أسد خادر! وما هي بسهيف دب عقور أيضا، ليست بغضبة فيل الأدغال، ولا صوت أدمي، وأين هي من ثغاء الأيل البربري الذي يستأثر بالمروج؟ بل لعلها مزيج من كل هذا أو بعضه.

ثم تفطنت، كلمس كهربائي القشعريرة تسري بجسدك من جديد، تأخذك بعنف رغم توقف الصرخة، ترتجف كما لو أنك على قمة كثب من صقيع.
ربما ربما كانت هي من يدري؟ يا إله الكون، إله الرحمة.
ربما كانت صيحة ديناصور! وأشفقت على نفسك من الوصول إلى هذه الحقيقة المرعبة، ديناصور؟ والديناصور هل أنت من ارتد إلى زمانه أم هو الذي سمح لنفسه باختراق زمانك؟؟
وتفحّصت مفرقيك لعل شيبا علاهما لهول الرجفة التي تمخرك، أو لعلك جننت؟ من ذا في زمنك يزعم أنه عاصر ديناصورا؟ كان الخوف قد جعلك تغفل أمر من بالوادي، بل اعتقدت أن الجميع قد شاطرك حيرتك وارتباكك وإلا ما سر توقف الرقص والغناء وكل مظاهر الحركة من حولك فور سماع الصيحة؟
الكل قد تسمّر بمكانه وما من حراك إلا عجيج الشلال الذي يندفع شاديا وكأنه يؤكد لك أنه وحده شريعة الوادي، وحده قاعدة الصوت فيه، أمّا ما سواه فطوارئ لا يعيرها سمعه، وبالفعل إنه وحده الذي يؤنس وحشتك، يرفض أن يستولى نداء أخر غير ندائه على كل المكان، على كل الليل، فالمكان له، للشلال، والشلال هو سامر الليل.

- ولكن؟ هل توقفت حركة الناس من حولك فعلا؟ هل تخلّوا عن رقصهم؟ عن أناشيدهم؟ أم خُيل إليك؟!

وصحت بأعلى صوتك:

- يا إلهي.

هل صحت فعلا أم كدت تصيح؟ لعله عطل الحواس قد عاودك؟ مدرسة الشك، اللعنة.

لو أنك صحت لكان صوتك قد أحدث ردة فعل لدى حارسك على الأقل، وما من شيء قد حدث عنده، لم تصح إذن هل جننت؟ ربما! إلى الشلال وهو يصدح نشوان هربت بوجدانك في حضور كلي، إنه استحمام نفسي، إنه غسل روحي، طُهْر على طريقة ما، وبعذوبتها أنغامه تجفف ما لصق بالأذان من أزيز، من خوف.

في هذه الأثناء بل ومنذ لحظات الصيحة الوجوه تتجه نحو الغروب كما لو أن الجميع دخل طور صلاة وثنية عديمة القِبلة، حتى حارسك والذي يليه قد انصرفا بوجهيهما غربا إلا أنت، وحدك من يحدق في حلقات المواقد التي تعتقد أحيانا أنها ساكنة ثم يركبك إصرار على إنكار سكونها لتنتهي بالشك في سلامة تمييزك.

ما يتراءى لك أنّهم يقفون بصمت تجاه السفح الغربي حيث لا حس إلا للمواقد السبعة المشتعلة أمام الكهوف وقد بدت لك كألسنة ممتدة إلى خارج فشكّلت الكهوف أفواها لها.

وبعد أن امتصّ الظلام البعيد أثار الصيحة ظننت أن مرافقك سيستأنف حواره معك، غير أنه ظل غارقا في ثقيل صمته، مأخوذا بكليته تلقاء الغرب، ماذا حدث؟ لماذا أحدثت الصيحة كل هذا الفارق الزمني الرهيب في ليلتهم؟! اختلست تساؤلك ثم اعتصمت بالصمت مثلهم.

أيقنت أنّ العالم الذي انتقلت إليه محمولا على ما يشبه الإغفاءة، لا يمت بأدنى صلة إلى عالمك الطبيعي، وأن عليك ـ لكي تتفهمه وتنسجم معه ـ أن تزيح ما فضل لديك من وعي، من تمييز، هيء نفسك إذن لصرخات مركّبة من أكثر من صوت قد ترعب سكون الوادي بين حين وحين، نفسك وطّنها على التماسك وعدم الإجفال.

فمع كل عالم الوادي المخيف هناك ما يخدمك، نسيان وشوق، نسيان أفلح في إفراغ ذاكرتك من وقائع الطور الأول من حياتك بحيث لا تسترجع منه إلا عنف القبضة التي أخرجتك من السيارة.

- السيارة؟!!

وهل كانت لك سيارة؟! أتنكرها أم لا تذكر؟! ولا أحد يمكنك أن تُشهده على ما تقضّى، أما الآن فالشوق الذي يغمر جوانحك هو ما يُلطّف من مخاوفك شوقك العاصف إلى رؤية الأميرة التي تحدّث عنها مرافقك، أميرة وادي الجن كما أصبحت تسميها، ولتكن الجنية أو الغرناطية أو ابنة اللبؤة حتى. إنهم من عالم الجن وقد صرت بينهم، بل وفي واديهم ووسط نيرانهم، فتيات الموقد الأول اللائي مررت بهن أثناء قدومك إلى ميدان الأفراح جنيات عاريات ما في ذلك شك، وإلا ما سر عُريهن ليلا وعلى قارعة الوادي مالم يكنّ جنيات؟ إنه عالم أرواح قد انقذفتَ ضمنه هكذا أعزل وبدون مقدمات كافية، قلتها وأوصيت نفسك بالحيطة، والحيطة قد لا تتحقق الا بمكابدة ما يشبه الاستسلام، المقاومة انتحار من ستقاوم؟ وبماذا؟ وفوق ذلك ربما خسرت رؤية الأميرة، كل ما تخشاه هو أن تتجدد الصيحة أن تلفّ الوادي ثانية بصوتها النشاز الذي يبتدئ بصيغة عواء ثم يتهدّج ويتهدج إلى أن يعلو صوت الكائنات التي تعرفها، وحدها الصيحة هي ما صار يخيفك الآن سرها مصدرها، قوة ذبذباتها التي تفجّر طاقة السمع.

وإلى جانب الصيحة يشغلك سؤال، متى ستغادر الأميرة مخبأها؟ ما علاقة الصيحة المدوية بها؟ بخروجها؟ هل هي صادرة عنها؟ أم عن بعض وكلاء كهفها؟

- تقدم. تقدم.

هل هو صوتها؟ أم مجرد صوت منبعث من مركز حراسة لا تراه؟ من المطلوب منه أن يتقدم وقد صرتم ملزمين بالوقوف والانتظار؟ لا تعرف لا تعرف، وبالثبات أوصيت نفسك وأنت تنتهي إلى استنتاج أخوف، من كانت تلك صيحته لا يكون إلا من أعتى مخلوقات كوكب أخر.
وأعدت نصح نفسك بحسن الانتظار، ما أروع الوقت وهو يتقضى في انتظار أميرة تجهل عنها كل شيء، خيالك يتزايد جموحه، ينتج شتى الصور عنها، محجبة؟ سافرة؟ عارية؟ قديسة؟ ماجنة؟ ذات وجه عذراوي أو حيواني مخيف؟ فاتنة؟ شمطاء؟ وفي تلون الصور اكتشفت دفين لذة وأي لذة، لذة الانتظار ولذة توالد الصور اللتين لما ينغص متعتك بهما إلا الخوف من سماع الصيحة ثانية.

- إنه عالم أخر.

كررتها في سرك، عالم غريب في مظاهره، في أصواته في حركاته في كل ما يصدر عنه، بل وغريب في أسماء أعلامه، حارسك لما سألته عن اسمه قال لك:

- اسمي "ڤدو" واسم زميلي "را".

والحارس لماذا يردد مقولة نسبها إلى ورع الوادي "لول" وكأنها لازمة في كلامه:

- لا تخف إذن فالموت ليس بالنهاية.

وألمع في ذهنك استنتاج مخيف:

- لعلها أرواح أموات قد استأنفتْ حياتها بالوادي؟ إن لم يكونوا جنونا فهم بالتأكيد أرواح أموات!

وما أن بلغت هذا الحد من التخمين حتى صعقت هل صرت في عداد الأموات؟! هل أنت ميت؟! أم هم من اقتحم عليك حياتك؟! ما بك؟ علام تستمر في الحيرة؟ ألم تعتزم التخلي عن التفكير بوعي؟ دعهم إذن كن مثلهم، حصّن نفسك ضد أية مفاجأة، ليسوا في حاجة إلى مواهبك، أسئلتك، إلى حيرتك، عالمك، لا تهرب بما تضمر فالهروب استغراب، منفى، اكتئاب، موت، ولكن أليس عليك أن تموت لكي تصير مثلهم مادام الموت منفذا للحياة؟!

- آهٍ. آهٍ.

ثم أمسكت على جبينك بكلتا يديك تلقائيا إلى أن بادرك صاحبك:

- ما بك؟ لا تتحرك فالحركة في هذا الوقت مروق إنها لحظة الوقار ألا تفهم.

ودون أن تنبس استرجعت سابق وضعك، سابق صمتك، سابق تجهمك، سابق وحدتك، سابق حجمك، وأنت تشاركهم مشاهدة الكهف الأوسط شدت بصرَك حركةُ ما، كان الذي غادر تجويف الكهف رجل على ما يبدو غير فارع القوام، لكنه مكتنز البنية وقد انسدل على جسمه ما يشبه الأسمال البالية، واعتمر قبّاعة من فرو بدت تكملة للون اللباس الذي يرتديه.
ما أثار ارتباكك ـ فوق ذلك ـ أن قبعته قد انتهت إلى أعلى بذيل حيوان صار منها بمثابة الريشة في لباس وجهاء اللوبيين القدامى، لقد افتك مظهره حيرة انضافت إلى ما تعانيه من غرابة منذ أن وطئت قدماك هذا المكان اللغز:

- هل يعود تقليد الريشة إلى زمانهم هذا؟

والريشة كرتبة عسكرية، كوجاهة اجتماعية، كرمز تمايز ومفاضلة، لكَم هي مبكّرة دلالة الذيل الأعلى هاته؟ وابتدرك مرافقك:

- في ماذا تتمتم؟
- لا شيء يا سيدي قائد الكمين، فقط مظهر الرجل أذهلني.

- أي رجل؟
- الذي غادر الكهف الأوسط وهو في طريقه إلينا، إلى الحفل.

واغتصب ضحكة مخفّفة وقال

- تعني القائد "تيرسين"؟ قائد الجيوش؟!
- تيرسين؟

وضحك كمن تذكر وقال:

- لعلكم الآن تنطقونها "تراس"

ثم بعد صمت أكمل:

- المهم أن صوامت صيغتها قائمة لاتزال في نطقكم.

ولفّك مزيد من الغرابة ولسرعان ما توافدت عليك أسئلة كدأبك هل أنت بحضرة عسكري أم عالم لغات؟! إنه عسكري مادام يرتدي جلد حيوان مفترس، أما عالم اللغات عندهم فما زلت تجهل نوع اللباس الذي يليق بمكانته وكدت تفحمه بما اعتقدت أنه حجة ثم ما لبث حماسك أن خبا فتظاهرت بالاقتناع لأنه ربما أفادك بأنها لم تكن كذلك في زمانه، أو لجأ إلى تخريج أخر يعتبر فيه أن التأنيث الصريح هو ما وقعتْ فيه الكلمة بين تائين كلفيف مفروق بصيغة ما، أو أو.

الذي تعرفه عن اسم تيرسين، أنّه صار علما على أكثر من حاضرة، إحداها قريبة من موقع تيفريت حيث توجد أنت الآن، وأخرى بأقاصي الصحراء كان قد أشار إليها الشاعر الإحيائي الكبير محمد ولد الطلبة.
وأخيرا لمعت بحدسك فكرة أكدت وجهة نظر "ڤدو" فهززت رأسك معلقا:

- صحيح صحيح.

فإلى زمن قريب لم يفقد الاسم دلالته على الإنسان، وبك رحلت ذاكرتك مستظهرة ما انطوت عليه بشأن الاسم تيرسين ثم قلت لــ "ڤدو":

- لعل أخر من حمله بصيغته هذه هو قائد صنهاجي عاش إبّان القرن الرابع الهجري؟

لم يعد في المكان سواك، كيف أخذتك اللغة عن هموم ليلتك؟ كلهم تحركوا باشّين نحو القائد تيرسين بخطو قليل لكنه منظم ومحسوب، بحيث لم يفصلهم كثيرا عن مواقعهم الأولى، أو يعدل من نظام حلقاتهم حول المواقد، وحاولت أن تلتحق بصاحبك لتسأله عن ما ستصنع لولا أن موكب القائد لم تعد تفصله عنكم غير بضع خطوات، ولولا أنك خشيت أن تتحرك خارج زمان الإذن بالحركة.
كان موكبه يتألف من رجال سبعة، سبعة فقط، اثنان يسيران خلفه على مهل كحارسين مباشرين يليهما ثلاثة ثم اثنان، والآن إنه بالقرب منك بحيث تميز لباسه، إنه ذو لون أرقط، نعم نعم إنه جلد نمر مضلّع قد اختتم في الأعلى بتسبيغة حرب أخفت ما حول العنق كله، والواقع أن لباس القائد كان عبارة عن برنس ذي قلنسوة قد تدحرجت إلى الخلف.

والبرنس؟! هل يمتد وجوده في الماضي هو الأخر إلى عهد الريشة اللوبية؟ ربما، فما من أحد يلمّ بعهد ولادته، وتعجب للوادي كيف أنه مشتلة أولى لكل ما اعتقدت حداثته، فلا مستحدث إذن إلا ما وفد من خارج الوادي،
أما سلاح القائد! يا للهول! إنه سيف حجري وفأس قد ثبتت على الكاهل وقوس نبال، هل كلها حجرية؟! لا، لا، فنور المواقد لا يعكس حقيقتها إذ ربما كانت غير حجرية.
لحظتها أخذت تراجع سلاح قائد الكمين ومرافقه وأعوان المجموعة التي أسرتك، يا للغباوة إنها كلها تبدو كذلك إلا من بعض ما يعززها من عصيّ ولو أنها أقل حجما من أسلحة القائد تيرسين، هل مادة سلاحهم حجرية؟ هل اقتادوك بأسلحة حجرية؟ يا للمعرة، لكن هل اقتادوك؟ من ذا قال إنه تم اقتيادك؟
آسلحة حجرية ترى؟ أم أبعادا خيالية تصورتها نتيجة ما تعــكسه النيران؟ أم؟ أم؟ وحملتك علامات الاستفهام إلى الاستنتاج المخيف؟ عطل الحواس، قانون الشك، ربما قد تكون أسلحة القوم فتاكة، فالعالم يعج بالأوفر قدرة على الإبادة منها، ولا عظمة لشعب ما إلا بمقدار براعته في إبداع الفناء الناري، فالأسلحة المتطورة مبذولة الآن كأي نبات زائد عن الحاجة، والوادي لا يبدو عاجزا عن امتلاكها، ما يغالطك، ما يوهمك إذن هو بصرك؟ نعم إنها مأساة الحواس، فلسفة الشك.
يا للعجب كيف ألهتك هيئة القائد عما يرافقه؟ بل ويسير في خنوع بين يديه؟ إنه أسد جسور نعم أسد! ماذا ترى؟ وأخذت تفكر في الفرار هل هو يديم النظر إليك حقا؟ بل ويكشّر عن أنيابه في حركة قد تكون تحية ترحاب بزائر غريب، أو مقدمات وثبة قد تكتمل فور أن تسمح بها المسافة الفاصلة بينكما.

لم يكد القائد تيرسين يأخذ مكانا كان قد أعد له أو يتفرغ إلى مساءلتك كما توقعت حتى انطلقتْ من الكهف الأوسط زغرودة مدوية حافظتْ على كل ايقاعات الزغاريد التي تعرفها، وبكل امتداداتها الصوتيـــــــه وتواقيعها المتصاعدة التي حجبت إيقاع الشلال أحيانا لشدتها، وعاودك السؤال: الزغرودة؟!هل هي الأخرى ابنة الوادي؟ لم تكن تعرف أنها تعود إلى هذا العهد المبكر، لعلها تطورت عن صوت أخر كان أخفّ جرسا وأقل امتدادا، هل الصيحة المخيفة التي تسمعها من بقايا الزغاريد التي ظلت خاما ولم تتطور؟ من يدري؟.

إلى هنا كانت الحلقات قد اتخذت وضعا بدا كما لو أنه نوع من حالة طوارئ، أما عيناك فمنصرفتان إلى رصد تحرك الأسد لا تزالان، فكل كائنات الوادي التي تحيط بك قد لا يباغتك هجومها إلا هو، إن لم يكن ذلك لقوته وخفته فلقربه منك.

وانشدهت أكثر إلى ما بأسفل الشلال لقد خلتها ـ في أول الأمرـ قطعانا من القردة تتسلق أفانين الأدغال، إلى أن اتضح لك أنها عبارة عن تعزيزات أخرى من الحرس وقد طوّقوا ساحة عرس الشلال من بعيد، يا للمصيبة الأسد من الأمام وهؤلاء من الخلف! وإلى هنا تشجعت لكن دون أن تبدي حراكا وقلت لصاحبك الذي لايزال منتصبا بجوارك:

- سيدي ماذا يحدث؟

واشتد حنقه عليك كما لو أنك تحادثه وهو في حالة صلاة، ثم قال لك هامسا:

- الكلام محظور فالأميرة بصدد الخروج ألا ترى؟

ولأول مرة تفرحك كلمة صادرة عنه، حتى أنك رددتها في نشوة:

- الأميرة بصدد الخروج.

وفعلا هو ذا أول الأفواج النسائية يغادر الكهف الأوسط وقد رفعن دفوفا لا يقاطع إيقاعها الجمعي إلا زغاريد تتخللها بين الحين والأخر،
وعلى إثر خروج الفوج الأول تعالى نداء:
- مولاتي الأميرة تهار سيدة الكهوف السبعة.

يا للروعة كيف تتمايز الصيحات، صيحة ما بعد المغيب التي أثارت وحشة الوادي وأدمت قلوب ساكنيه، وصيحة البشرى التي أزفت إليك خبر لقاء الأميرة، سيدة الوادي الجنية أو الغرناطية أو أخت الأشبال لا يهم.
ولكزك صاحبك بمرفقه إيذانا بظهور سيدته وكأنه يلمّ بلواعج شوقك إلى رؤيتها، ومع ذلك حافظ كلاكما على سكونه.
خلف الفوج النسائي ظهرت مميزة وقد ارتدت ما يشبه فستان عرس لولا أنه في لون النار، هل هو الأخر من جلد؟ من لحاء؟ من فرو؟ لا تدري، كل ما تدريه أن سبع وصيفات هن من يحملن ذيله، امتداده الطاووسي الخلفي حتى لا يمشط الأرض بينما تسير إلى جانبيها اثنتان رشيقتان في خفة.
عندها تفطنت إلى لباس الوصيفات الذي يستمد من النار وهج لونها، فضحكت من نفسك حين حسبت راقصات الموقد الأول عاريات لمجرد أنهن يرتدينه، يا لبلاهتك.
أما من سرن خلف الوصيفات السبع فقد حملن مشاعل صغيرة الحجم كأنها شموع زُرعت على امتداد مواقع خطو الأميرة، فبدت كشجيرات تزين جادة الممشى بتناويرها.
كان تهاديهن يُقاطع دائما بإرسال زغرودة من هاته أو تلك من حاملات الشموع الخشبية وإلى جانبهن سار رجل قصير القوام شبه مستقل في ثقة

زائدة بالنفس خلف شبل أسد أيقنت ـ من حفاظه على موقعه ـ أنه مروض على مسايرة الموكب الأميري.
في هذه اللحظة أدى القائد تيرسين مايشبه استدارة نشطة إلى الخلف حتى يواجه الأميرة القادمة بتحيته، وقد حذا حذوه أفراد حلقات الرقص ممن كانوا في السابق متجهين بوجوههم نحو الشلال، ومن جهته لم يتخلف الأسد الذي يصطحبه القائد عن أداء التحية بحيث رفع إحدى أماميتيه وبوجدانك طافت أمنية لاعجة:

- ليت موكبها يمر بالقرب مني، هاته التي يحيّ مقدمها الحيوان فضلا عن الإنسان.

وإلى الخط الأمامي لميدان النار انتهى الفوج النسائي دون أن يفصل وصولَه فارق يذكر عن وصول الأميرة التي أخذت تمرر نظراتها عبر وجوه مستقبليها، وعوض أن تتوقف كما اعتقدت واصلت خطوها باتجاه الشلال الذي بدت لك مياهه وكأنها شرعت في أداء لحن مميز لاستقبالها، لحن تفرّد عن سيمفونية المساء كلها، وإلى هنا هرعت الوصيفات إليها، ماذا حدث؟ يا للعجب، إنهن ينزعن عنها فستان العرس ووجدت نفسك تتحفز للهجوم عليهن، الأميرة لا تُهان وعلى مرأى منك.
ولكنك انتظرت كدأبك لقد بدت بزي شبه عسكري، إنه من فرو ناعم غير متضح التفاصيل، أمّا شعرها فقد خضع لتسريحة قذالية محكمة أجبرته على التمركز بأعلى أذنيها، والقذال المبكر حدّثك عن رسومه الصخرية زوار سفوح "طرف النخيلة"[بجبال القصور] دون أن يخطر ببالك أنك ستواجهه مباشرة على أرض تيفريت.

احتفظت النسوة بالفستان الأميري ليفسحن لها مجال التقدم من الشلال في خطو ثابت، أما هي فقد كانت تعايش الطقس بكامل حضور روحي على ما يبدو لك.
وما أن بلغتْ أسفل مصب الشلال حتى انحنت بقامتها عليه، ثم تناولت جرعة من مياهه، هل تكون بذلك أول من طعمه بعد الفيضان؟ ربما أخذ شربها على أنه إيذان بانتهاء طور الغدير وبداية مرحلة العذوبة.
ونحو الخلف غادرتْ الشلال لتلتقي حاملات الفستان وقد أسرعن نحوها، وما أن أعادت ارتداءه حتى انتهت إلى مجلس أقيم لها بالقرب من حلقة الموقد الأوسط حيث يحتفظ القائد تيرسين بتحيته يرافقه فيها ـ هذه المرة ـ رجلان لم تتفطن من قبل إلى حضورهما، أما الأسد فكان قد تنحّى جانبا ليتمدد رابضا وكأنه يفتح عهد أمان من جانب واحد بالنسبة إليك.
انطلقت أفراح الوادي فور جلوس الأميرة، بل إن القائد كان بدوره قد التمس مكانا بجانبها وفهمت من كل ذلك أن الجميع قد تحرر من شعائر التحية أو ضوابط لحظة الوقار كما يسميها الضابط " قدو"
كان وهج النار وحده ينقل بعض ملامح وجهها إليك بين الحين والأخر، فأزعجك ما كان يطرأ عليه من مد وجزر تماشيا مع تقلبات النسيم غير العنيفة لحسن حظك، تمنيت للنار أن تستقر، أن تتمرد ـ ولو للحظات ـ على قانون خضوعها للرياح حتى تتيح لك المزيد من النظر إلى هذا الكائن الكهفي الذي لم تتحقق من فصيله، أهو أدمي أم جني؟! أم هجين من العالمين كليهما؟ وغلب على ظنك أنه ناري المادة مادام كل شيء فيه بلون النار، حتى السمرة التي تُلحظ على بعض سكان الوادي تتحاشاه، وعلقت في تنهد غير مسموع:
- إنها ابنة الملك الأحمر صدقت جدتي.

إنها إشراقة أنتجت من تلاقيها مع لون النار مادة استثنائية لاهي بلهب وكفى، ولا هي بوهج مجسم صرف كالذي تعكسه الوجوه المحبّبة إلى النظر عادة، إنها صورة مركّبة أخذ فيها الجمال خاصية اللهب واستعار منها اللهب معنى روعة الحسن فتجاوز كلاهما حقيقة مادته التي عُرف بها.

الفصـل الخامـس
مـذاق التطـهّر

وانتهزت رغبة صاحبك وقد تقدم ليشركك في كلامه فسألته:
- من الرجلان اللذان يجلسان إلى جانب الأميرة والقائد؟

واعتقدت أن سؤالك قد أضحكه وإلا ما كان ليقول لك وبكل خشونة:
- لم تعد اسئلتك منصبّة على الأميرة وعن جوانب كنتَ قد ظننتها غريبة عن حياتنا؟

وقلت كما لو أن الكلفة قد زالت بينكما:
- لن تنتهي اسئلتي، لكن منهما؟

ودون أن يشير بيديه قال:
- أما الذي على اليمين فورع الوادي "لول" المبجل وأما الأخر فعرّاف الوادي "أخمار" الحكيم.

وخلفهما انفلتت منك عيناك ولكنهما وأنت تمررهما كانتا أكثر التصاقا بمحيا الأميرة، بهالة الصورة النورانية المركّبة، وفي هذه اللحظة اقترب منكما "را" دون أن يخلّ بنظام الحراسة، وقال لك مازحاً:
- ألم تعد خائفا كما في الماضي؟
- كلا وقد بلغ اِطمئناني درجة صرت أرغب معها في الرقص يا صديقي، لكن يشغلني أمر رجال بالصف الثاني فلماذا يتمتع ثلاثتهم بحظوة الجلوس المباشر خلف الأميرة؟

وإلى هنا تدخل "ڤدو" بحنق:
- إنك كثير الملاحظة يا ("") ما اسمك؟ وقد عرفتَ كل أسمائنا؟

- اسمي؟! «...»آهٍ، صحيح، ما هو اسمي؟! وهل كان لي اسم؟ اسمي مدوّن على شهادة السياقة وعلى البطاقة الرمادية!

ثم انفجرتَ ضاحكا في وجه "قدو" و"را" اللذين يتتبعان قهقهاتك المتقطعة في ارتباك لايخلو من ذهول:

- ثم ها أنذا أتحدث كما لو أن لي سيارة، وذات أوراق ثبوتية أيضا يا لغباوتي.

وتبادل الحارسان نظرات ارتاع لها زائر الوادي ثم أشحت عنهما بوجهك وأخذت تقلّب شرائط ذهنك، هل نسيت فعلا أم تتناسى؟
ولكن لماذا يجب أن يكون لي اسم؟ لعله صار علما على بلد كاسم تيرسين، فتيرسين كان اسم شخص ثم تحول إلى علم على أكثر من بلد، ولماذا عليّ أن اعتقد أن لي سيارة وعوالم الوادي تجهل مادة الحديد أو تخافها أو تكرهها؟ لقد اكتفت بموادها الخام التي لم أتأكد من طبيعتها، من يدري ربما كانت:

- حجـــرا أو ترابا أو خشبا فحسب، فحسب.

يا لروعة الوادي في غياب الحديد، تلك المادة الشريرة التي لم ينجرّ عن علاقتها بالأرض سوى القتل والصخب والدمار، إنها مادة غير أرضية ولذلك لم تأخذها بالأرض رأفة ولا شفقة، آهٍ، كم بلغ عدد قتلى الحديد منذ أن برز أول خنجر إلى الوجود؟ لقد آمن الوادي صولة الحديد فنام ملء جفنيه.
فلتظل مجهول الاسم في زمن ما قتل مستعملي الطرق إلا التصريح بأسمائهم أواكتشافها، لكن الفرق بينك وبينهم أنك أخفيته إلى أن نسيته، ثم قلت لصاحبيك وكأنك وجدت مخرجا:

- فليكن اسمي منذ الآن زائر الوادي.

واسترقت النظر صوب مجلس الأميرة، كان القائد تيرسين قد أشار إلى "ڤدو" بالتقدم منه وما أن غادركما حتى ابتدرت "را":

- ماذا يعني هذا؟
- ألا يمكنك أن تصمت؟!

وأضاف محتفظا بحدّة لهجته في وجهك:

- دع الأمور تنساب تلقائيا لا تسابقها بأسئلتك الغبية هاته.

هذا الرجل الكئيب المدعو "را" الذي يقل "ڤدو" لياقة جسمية وقامة كيف بدرت منه كلمة نابية كتلك؟ وأنابت عنك عيناك في نقل نقمتك إليه، وأدركت أنه أحس بإغضابه إياك حينما تقدم منك وهو يقول بكلمات غير مستقرة:

- عفوك يا زائر الوادي سامحني.
- يا للطفكم يا سيد "را" لكم أنتم حريصون على تطيبة مشاعري.

قلتها ورحبت بابتسامته العريضة التي كادت تنسيك عودة "ڤدو" الذي اصطحبك إلى المجلس وخلفكما تحرك " را" دون أن ينبس وكأن مهمته لما تنته بعد، ما يشغلك الآن ـ وأنت في طريقك إلى مجلس سيدة الوادي ـ هو فتنتها وهيئة الأسد المستلقي إلى جوار القائد تيرسين، ومدى اطمئنانه إلى قدومك قريبا من مربضه يقولون:

- "السبُع لا يجرؤ على افتراس ضيفه"

وحاولت تقليد خطو "ڤدو" في إيقاع متثاقل نوعا ما، جعلك تبدو غير منجذب نحو الحلقة السحرية التي أخذت تتضح وجوه أصحابها على أضواء أقرب النيران إليك بشكل يكاد يكون جليا.

وبغتة توقفت عن السير وكأنك أصبت بمغص مما جعل "قدو" يسحبك من ذراعك بقوة نحو الأمام إلى أن أشارت عليه الأميرة بالتوقف هو الأخر، وحملت إليك سكينة الليل صوتها كما لو كان معادلا إيقاعيا لنغم الشلال المنبعث من صدر الجبل:

- لمَ لا تتقدم أكثر؟

وتباعا من حلقك هربت الكلمات وأنت تلاحقها:

- أوقفتني أنوار محياك يا سيدتي وقد غمرتني من بعيد.

وضحكتْ فأنتشى لضحكها الوادي ثم قالت:

- قف حيث أنت إذن.

وسرعان ما أنتابك شعور بالخوف إنها لحظة المساءلة وها قد أزفت فكيف ستجيب؟ والأميرة تتأملك، ما أروعها على ضوء النار، وما أروع النار على ضوئها، لكن ما أصعب ما ستنطق به، ستسألك عن اسمك، عن هويتك ثم عن ماضيك وعلاقتك بالوادي، وكلها أشياء صرتَ ولا صلة لك بها، يخيل إليك أن الليل كله وكل الوادي قد تفرغا لا يصال كلماتها إليك، آهٍ، ثم آهٍ، لو تبادرك بالسؤال عن اسمك الذي صار في عداد المفقودين أو في عداد المحظورات التي لا يمكن البوح بها.

كانت مشاعرك المضطربة قد شغلتك فعلا عن ما يكابده "قدو" من طقوس لعلها تحية مثول بين يدي الأميرة، وتفطنت إليه وهو يمارس ألوانا من الحركات بعضها لا يُصنّف إلا ضمن الأشغال الشاقة، بحيث اقتضى منه انبطاحا خلفيا على ظهره، تلاه تمدد، فنصف وقوف، ثم إعادة مستمرة إلى وضعه الطبيعي سرعان ما يعقبها انبطاح، فتمدد فإشارات باليد نحو الشلال وهكذا. إلخ.

إنها ـ وكما علقت في نفسك ـ عبارة عن عبادة يجب أن تنقرض رأفة بأتباعها لما يترتب عنها من إجهاد وتعب، في غضون ذلك لم تتوان الأميرة عن الانشغال بحركات "ڤدو" المدروسة من خلال وضعها إحدى يديها على صدرها، بل على موقع قلبها كما لو أنها تجس مدى تجاوب نبضها مع خشوع "ڤدو" وهو يؤدي مراسم المثول، وكذلك فعل كل من حضر المشهد إلا أنت.

وكأن الجميع يبادل "ڤدو" إحساس معايشة صوفية لا يتذوّقها الغرباء عن الوادي مثلك.

و"ڤدو" ينهي شعائره وقد تصبب جبينه عرقا وتلاحقت أنفاسه لثقل ما لحقه من تعب تحركت نحوكما إحدى الجاريتين المرافقتين للأميرة لتمسك بيد ك وتتقدم بك خطوات باتجاه سيدتها التي أعادت يدها إلى سابق وضعها وهي تقول:

- عادة لا يُسأل الضيف عندنا إلا بعد انقضاء ميقات الضيافة.

وكدت تقبّل يدها لولا أنك خشيت أن ترتكب حماقة منافية لنواميس الوادي في نظر "ڤدو" الذي يحتفظ بوضعه في حالة انحناء إلى أن أعادتك الجارية إليه ليصطحبك نحو الشلال، وكعادته سار "را" خلفكما محتفظا بصمته في نوع من الوقار، عندها قررت في نفسك أن تسمي وصيفة الأميرة بالجارية الخضراء لزمردية لونها.

قرارة الشلال تحدث أصداؤها زئيرا شبه مختنق أخذ يتهدج كلما اقترب منه ثلاثتكم إلى أن استحال مخيفا حقا في عتمة الليل وهو يغمغم في لجة سفلى لا تلاحقها أنوار النيران، من خلفكم كانت قمم التلال من فوق ـ وهي ترقبك وقد لفّ صخورها الظلام ـ تضفي على صوت الماء المنهمر في

تركيز جوا مرعبا يعتقد من يعايشه لأول مرة أن هوله لا يوجد إلا خارج الجرم الارضي.
سائل الشلال العذب كان تنازليا عبر لسانين أحالهما سواد الليل إلى لون فضة وهاجة يخيل لمن لا يعرف المكان أنهما يصدران عن كير يسبكهما بأعالي المرتفع ثم ينحدران في خطين متوازيين لا يتصلان إلا في مهوى الوادي، ولم يفتك أن انفراج التيارين بهذه الصورة ربما هو ما كان قد أسس لطقس ديني عند الورع " لول" أو من سبقه إلى الوادي من طلائع أتقيائه، ومع تقدم الليل أنهت الأنفاس بقايا لهاثها وكأنها تخلي المكان لوحشة مرعبة سرعان ما استولت عليه وقد انعقد بالوادي ثالوث شبه مقدّس قوامه: لـيـل ومـاء ونـار.

- ماذا يصنع هؤلاء المردة في مكان كهذا وفي مثل هكذا زمان؟!

في نفسك أخفيت السؤال وتظاهرت بالانسجام مع الجو الشاعري الذي يرسمه وقوفك قرب الشلال.

- لماذا لا يعرجون في أي زاوية من السماء ويتركون بوار الأرض لأهلهـا؟ لنا؟! إنهم جهلة إذ ينافسوننا على سجن الأرض مع أنه بوسعهم مغادرتها والعيش خارجها.

سيدرك هؤلاء الحمقى أنه متى أتاح الإنسان لنفسه منفذا خارج الأرض إلا وغادرها دونما تماطل أو تركها لهم ليخلفهم على مواقعهم السماوية.
في صمت أكدت لنفسك ما اعتقدت أنه حقيقة، كل الروايات في هذه اللحظة اتضح لك زيفها إلا رواية جدتك، صدقت الجدة التي أخذتَ الآن تُكثر من الترحم على روحها صدقت، إنك أمام فصيل من بني الأحمر وهم أشرس عفاريت الكون كما قالت الجدة، نعم إن الأمر بهذا الوادي لا يتعلق لا بواحدة رضعت حليب اللبؤات والأسود، ولا بأخرى أجبرها تراجعها من

الأندلس على اللجوء إلى كهوف تيفريت سيما وأن أستاذ التاريخ لم يخض في أي علاقة مكانية مباشرة بين أميرة غرناطة وتيفريت إنهم جنون لكم كانت جدتك على حق.

ولكن، أتراهم من عالم الجن حقا؟ وإن لم يكونوا فمن هم؟! من قدامى التيفريتيين؟! وما حقيقة التيفرتيين القدامى؟ يمكن للشلال أن يُغنِّي بأعلى صوته طوال هذه القرون دونما حاجة إلى إنسان ليسمعه، أيضا يمكن للكهوف أن تقضي دهورا وهي مُشرّعة الأبواب من غير أن يعني ذلك أنها كانت مأهولة بالبشر في يوم من الأيام، لكن! وتراجع إنكارك، حقا لا شيء يثبت انتسابهم إلى المكان إلا النقش الحجري.

فمَن نقش طائفة من رسوم أندر الحيوان على واجهات الصخروداخل الكهوف أيضا؟؟! إنهم هم، رواة الحجر.

إنه إنسان تيفريت القديم الذي أخذ بأسلوب عصره في التدوين الصخري، بعد أن قلّد اللبؤة في استيعاب عملية التكهيف فصار نزيل كهف يقيه غضب الطبيعة ويتسع لحمل إبداعه إلى ما وراء فنائه، بعض ما تعرفه عن علم الآثار أثبت لك أنك تعيش الآن طور "الإنسان الصياد" كل المعطيات التي استقيتها تؤكد هذه الحقيقة، إنك في طور معروف في أزمنة البشر وما هو من أطوار أزمنة الجن.

من يجوز له أن يشكك في حقيقة الأخر إذن؟ أنت أم هم؟ أنت الذي دخلت عالم الوادي كإله هندي مغمور السوابق في نظرهم؟ أم هم وقد خلّفوا بطاقات عصرهم على سجل الصخور؟

واديهم لا ينام، لا يودع زواره خلسة نوم، مزار مفتوح العتبات هو الوادي، لا يقفل أبوابه في وجه وافد ما، بل يستأنـــــف انتشاءه عند استقبال كل جـــديـــد.

وككل لياليه بات الوادي ليلتك تلك يقدم الماء والخضرة والخرير لأطياف الوحوش الهاربة نحو الدفء، نحوه، كل الكائنات ملجأها الوادي حتى لكأن كل ما بخارجه صار عدما في عدم، الوادي، وأنت تقف على إحدى ضفتيه مأخوذا بصخب أعلاه وسكينة أعماقه لم يحدّثك بغير خرير شلاله الذي ذكّرك بشلال "اقوازو" الذائع الصيت على حدود الأرجنتين.

منذ حين، وقبل أن تغادر مجلس الأميرة كانت ألسنة اللّهب في امتدادها نحو الأعلى تحرق فواصل المسافات التي ظننت أن حيز كل موقد حددها لتصاعده، غير أنها على العكس من ذلك تتعانق في تقاطـــــع لترسم نصف دائرة تنتهي نحو الأسفل وقد وازى الخط النوراني ـ الذي اشتركت النيران في صنعه ـ قامة الشلال في ارتفاعه.

وما أن استحضرت في خلدك شلال "اقوازو" حتى داهمك سؤال: هل أن ما يربط سكان تيفريت بحزام النار المتوهج الذي ينعكس على صفحة شلالهم يحمل دلالة وجد ديني كالذي كان يغمر سكان "اقوازو" تجاه قوس قزح الذي برز كمحصّلة شعائرية لثوران شلالهم الغاضب في اللحظة التي مد فيها عرّافهم يده نحوه؟!

وإذا كان الأمر كذلك فأية زاوية أو أي لون من هذه الجدارية الجبلية التيفريتية الرائعة تراه يشد أنظار أهالي تيفريت إذن؟ أهي مياه الشلال الصاخبة أم عروج اللهب في السماء؟ أم تفاعل الضدين الماء والنار داخل كبد الظلام؟ أم أن سكان الوادي مثلك لا يتجاوزون في نظرتهم ما تحيل عليه الصورة من مظهر جمالي وحسب؟ إنهم شعراء بدون شك وفنانون بالضرورة وقد غمرهم هذا المنظر الجذاب بطافح انتشاء، وأين وجه الغرابة في هذا والقوم من حفدة قدامى النقاشين على الصخر؟

عرّاف "اقوازو" ما أن مد يده نحو الشلال حتى برزت قداسة فعله في شكل قوس قزح سرعان ما ارتسم فجأة فوق مياه الشلال ومنذ ذلك الحين

صار علامة له، أما العرّاف "أخمار" عرّاف وادي تيفريت، فيبدو أنه حكيم أكثر من كونه عرّاف، حكيم يستقرئ أيلولة الوادي على ضوء المعيش فقط، يقرأ آتي الوادي من واقعه، من راهنه فحسب، إنه عرّاف واقعي الرؤى كما كان الحال بالنسبة لنقاش الصخر.

ودنا منكم الورع "لول" وقد جاء خلفكم وكأنما دعي لإجهاض خواطرك فأوقفك بحيث تنتصب مستقبلا الشلال، ولما اطمأن إلى اعتدال هيئتك شرع في خلع نعليه الجلديين الشبيهين بالخف، وفي تؤدة لعلها مطلوبة، وطيء برجليه مهبط الشلال حافيا ليتناول من مائه رشفات وقد وجه وصيته إليك: "هن رشفات سبع في غير افتتان وبيد واحدة، واحدة وبكامل اطمئنان، سبع رشفات من غير التفات، بعدد الكهوف والنيران ومواسم الانتجاع نحو الفلاة، سبع سبع سبع بعدد مستأنس الجياد وليالي الحداد وفاء لأرواح من نقشوا التلال وفاء لروح الخطّاط" وانقال" ورددت اسم "وانقال" هذا على جهلك بهويته ثم تقدمت محمولا على ثقة بالنفس تستمد قوتها من وجود الورع "لول" إلى جانبك ومن مكوث "ڤدو" و"را" في حالة تأهب خلفكما والجارية الخضراء قريبا منهما، بل ولاعتقادك أن الأميرة "تهار" ذاتها تترقب حركاتك من بعيد،

وعجبتَ لرباطة جأشك وقد صرت تستأنس بمن كنت تخافهم، لقد بتّ ولا شيء يخيفك إذن، وصعّدت بصرك عبر رونق المنظر الليلي وقد أنزاح تحفظك فعلا، سمعك أيضا ألف لغة الشلال على ارتفاع هديره، وكدت تبتسم وقد تحركت إلى حيث يقف الورع "لول" كما لو أنكما بصدد تقديم قربان مع حلول الغسق، وأعدت تعليقك:

- إنهم جنون بحق.

وقاطعت اطمئنانك خشية، ربما كانوا جنونا بالفعل من يدري؟ قد ينصرفون إلى رحاب السماوات في لحظة ما؟ ويخلّفونك بالوادي وحيدا لا أنيس لك إلا الليل؟ كيف انخدعت إلى حيلهم رغم وصية جدتك؟! وهذا الورع " لول" ألا يكون أحد كهنة الجن؟! و"أخمار" من يثبت لك أنه عرّاف غير جني؟! إنهما من مساعدي ابنة الأحمر ملكة تيفريت وما حولها.

و"ڤدو" و"را" وقد أحببتهما! أليس بتابعين يحسنان معاملة البشر لغرض ما؟ آهٍ... وآهٍ... والأميرة "تهار"! ألم تأت بشقرتها من وراء أفق ما من أنحاء السماء من إحدى ممالك الجن؟؟!! إنها هي ابنة بالأحمر، فتهار ليس باسم نباتي إذن رغم مدلوله الذي تعرفه إنه اسم سماوي على ما تحتمل، كان تفكيرك قد استغرق منك وقتا فهمه الورع "لول" على أنه تردد وخوف من ملامسة الماء ليلا، ومع ذلك أمهلك لتغالب تحفظك ذاتيا، ولعلها من طرق التلقين عنده أي أن ذلك من بيداغوجيا الشلال.

ولأنه لا يمكنك فعل غير ذلك، نزعت نعليك وتقدمت من لجة الشلال السفلي ثم ارتشفت سبع جرعات على غرار ما فعل الورع "لول" الذي أنتظرك لتتم الطقس كي يمسح على جبينك وهو يردد أدعية غاية في الإبهام والغموض، ذكر خلالها اسم الشلال مرات والكهف الأوسط ونيران المواقد والخطّاط "وانقال" وأسماء أخرى لم تعها.

واشتدت حيرتك وهو يعاود اسم الخّطاط "وانقال" وثعبان الركام القصي، بل عصفت بك رجفة من احتمال تجربة أخرى قد تمر بها يكون فيها ثعبان الركام من بين مستقبليك ليلا.

أنهى الورع "لول" تمتماته مشيرا عليك بمغادرة المسبح فالتقطت نعليك منصرفا أمامه، وقبل لحاق الورع بكم أثنى "ڤدو" و "را" على شجاعتك، إلا أنك أغفلت إطراءهما الذي قد يكون مقدمة إعداد نفسي لزيارة ثعبان

الركام ليس إلا، وأنساك سهومك تحية الخضراء وهي تتحرك باتجاه الخلف في انتظار الورع، وتقدمت من "ڤدو":

- ثم ماذا بعد وجبة الشلال؟

ونحوك تراجع بجذعه الأعلى ليبلغك:

- اسمها عندنا مذاق التطهر.
- طيب، وماذا بعدها؟
- بعدها مأدبة الموسم التي أرجو أن تعجبك أطباقها.

وتلقائيا سبقك سؤالك:

- وتقام هكذا على الهواء الطلق؟

وإلى هنا تقدم "را" وكأن دوره في الكلام قد حان:

- كل الأشياء عندنا تسير على سجيتها، لا شيء محجورعليه أو خارج الطبيعة.

وكدت ترفع يديك انتشاء وقد علقت في سرك:

- ما أروعك أيتها الحرية.

واصلتَ خطوك المثقل خلف "ڤدو" الذي يبدو أنه قام بحركة ما تجاه موقد النار الأوسط حين اقترب منه، وخُيل إليك أن هذا الموقد يمثل شعيرة في نظر سكان الوادي، ولأنه كان من الصعب عليك تقليد حركة "ڤدو" أغفلتها بل ربما لذلك لم يطلب إليك القيام بها.

كان "ڤدو" فارع الطول بمقاس رجل الأمن عادة إلى درجة أن ما يشبه الجلد الذي يرتديه لا يناسب قامته، أما يده فلا تزال على قبضة سيف لم تتبين مادته رغم قربه منك لخفوت أضواء النار.

وإلى جانبكم يرابط حرس مجهول الهوية بالغابة لا يفتأ بمواقعه جاثما خلف أهازيج الشلال وقد أخذت حدتها في التراجع كلما ابتعدتم عنها.
أما وراء مجلس الأميرة فتنعطف في انحناءة كهوف فاغرة الأفواه تتقدمها مشاعل لمواقد خلفية مشهّرة في شكل ألسنة، وعلى الحيز الفاصل تناثرت أشباح حرس أخر عديم الحركة فبدا كما لو أنه مقبرة أثرية قد زُرعت بتماثيل آدمية في الصين القديمة.
كل ذلك قد مررت به وكان الليل لايزال هناك وقد عانق قمم الآكام التي اشرأبت بأعناقها نحوه وكأنها بصدد توقيع نوع من الألفة معه لا يخترق ظلمته السميكة سوى هذه النيران المنبعثة من هنا وهناك كنجوم أرضية مندفعة نحو الأعلى.
وكلما حدقت في الظلام إلا وارتمت إلى أسماعك ارتجاعات الصيحة مخيفة مزعجة فاتكة بالمشاعر، فيسبقك بدنك إلى الاقشعرار، في كل هذا الوادي الممتد المليء بضروب الدهشة لم تعد تخشى سوى الصيحة وإن أصبح يؤنسك منها ظنك أنها من بدايات الزغاريد الأولى كما اعتقدت سابقا، لعلها زغرودة عروس تم الفتك بها قبل أن تتمها فأخذتْ تتكرر طوال الزمن منطلقة من مكان الجريمة "فالقتيل يردد أخر كلامه" كما يقال.
الصيحة؟! لكم هو مقلق أمرها، وإذا ما سألت عنها أحالوك إلى عرّاف الوادي وكأنما هي تنطوي على سر أعظم موكل إليه وحده ووقف عليه، تراها لمن؟ وهل لها ميقات تنتظره لتنذر الوادي بمقدم ما؟! ورغم الخوف يستبد بك فضول عنيد في اكتشاف أمرها يدفع بك إلى السؤال، وغالبت تحفظك لتدنو من "ڤدو" متسائلا في حزم هذه المرة:
- أمر الصيحة يحيرني بل يسكنني يا سيد "ڤدو"؟

وتُطأ طئ رأسك كمن أخفق مسبقا، بل وتحتد مخاوفك إذ لو لم تكن هذه الصيحة على كبير خطر ما اختص العرّاف وحده بالإفتاء فيها؟ ليست طقسا دينيا إذن وإلا لكان تولى الخوض فيه ورع الوادي "لول"
أما وقد تلقيت النصيحة باللجوء إلى العرّاف "أخمار" بدل الورع "لول" فلا شك أن أمرها شديد الصلة بماضي الوادي، بأساطيره التي لا يؤخذ تأويلها إلا عن العرّاف ولا يُستفتى فيها غيره.
ثم ماذا عسى العرّاف أن يفيد بشأن الصيحة؟ وهل يتفرد بسرها دون سكان الوادي؟ هل تقتصر حقيقتها على الأعيان منهم أو المتنورين خوفا على مشاعر العامة من هولها؟ أوَ لهم قول في العامة والخاصة كالذي أخذناه عن أبي حامد الغزالي وتجربة "حي بن يقظان"؟
وانقطع سيل أسئلتك وقد أعادك "ڤدو" إلى راهن لحظتك بدعوته إياك إلى التقدم، يا لغرابتك إن الفاصل بينك وبين مجلس الأميرة لا يتجاوز بضع خطوات بل إنك لعلى مقربة من صفيح حجر مستطيل واسع الحجم أخذ شكل مائدة عديمة القوائم قد ازدان سطحها الفخاري برسوم استطعت أن تميز منها شكل نعامة وأبقار ثم غزلان إلى جانب أمواج من الخضرة يقاطعها حاجز سائل هو في روعك رمز لشلال تيفريت.
إن هذه الصفيحة المزدانة بتهاويل الرسم وضعت بأدب جم أمام الأميرة وقد تحفّز لمشاركتها المأدبة القائد تيرسين والعرّاف أخمار والورع لول، ورجال الصف الثاني ممن تحتفظ بجهل هويتهم إنهم ثلاثة وقد ارتدوا جلود ثيران خيطت في شكل برانس لولا قصر حجم قلانسها، ورغم ذلك لم تكتمل زينتهم في نظرهم إلا باعتمار قبعات ضخمة من فرو لولا أن أعلاها من غير ريش.

لكن ما شدّك في هيئتهم أنهم عزل من أي سلاح عكس كل من قابلتهم من رجال الوادي، فهل للريش علاقة برتبة تتيح امتلاك نوع معين من السلاح؟
وسمعت الوصيفة الخضراء تدعو أحدهم ولعله كبيرهم:

- تقدم يا سيد ترغال.

وكدت تبتسم لغرابة اسمه لأن الترغال في معجمك نوع من الفطر فانقذف إلى خاطرك سؤال:

- لماذا يستمدون معظم أسمائهم من أسماء النبات؟

وما أن وقفت إلى جانب "ڤدو" و"را" حتى شرّفك القائد تيرسين شخصيا بدعوته إياك إلى الجلوس بجانبه، وعاودتك خيفة نابعة من جهلك بمراسم الطعام في الوادي، فربما ارتكبت فادح خطأ أو صدر عنك ما ينال من نواميس الوادي كما أسماها"ڤدو" وأزمعت التحفظ والتحكم في حركاتك، لن تكون أول من يبادر المائدة إلا بعد أن تأخذ عنهم أسلوب تعاطيهم معها، طوال تفكيرك في كيفية التعامل مع الطعام لم تتأخر عيناك عن الانبهار بمحيا الأميرة التي لم يتطلب مثولك أمامها من "ڤدو" أي مجاهدة في التحية كما في السابق كانت أفتن بل ربما ازدادت جمالا عن كل المرّا ت التي سبق لك أن رأيتها فيها غير أن لجوءها للصمت، طوال هذا الوقت الذي تقضّى، خلّف في نفسك انقباضا مجهول السبب.
صحيح أن بسمة خفيفة طافت عبر شفتيها سرعان ما أعددتها بمثابة ترحيب بمقدمك كضيف، لكن استئنافها الهروب إلى مطبق الصمت يبعث على الحيرة، عيناها المشبعتان بخضرة الوادي لاجئتان إلى الشلال وكأنها تتمعنه رغم حواجز الظلام، هل دخلت طقسا دينيا يسبق الطعام؟!
هذا الشلال! كيف يعلون من شأنه إلى هذا الحد؟ إنه محل إكبار في كل حركة من حركاتهم، بل وفي كل سكون يخيم عليهم، أم هل ذكّرها

حضورك بهيئة شخص ما؟ ثم ماذا وراء سكونها الثقيل؟ هل هي مغرمة بأحدهم ومنصرفة كليا للتفكير فيه إلى درجة أربكت شهيتها؟ وما أن بلغت هذا الحد من التفكير حتى شعرت بنوع من عدم الارتياح هل أنت تغبط هذا الشخص المفترض حضوره ببال الأميرة؟ يا لغرابتك يا زائر الوادي.

وقذفت بأخيلتك بعيدا لتجد نفسك وجها لوجه أمام ما تخشى إنه، إنه أوان المساءلة وقد زفّ، يا لجهالتك، لعل الأميرة تستحضر محرج أسئلة؟ وأنت ماذا بصددك وقد نسيت اسمك وكل ما يتعلق بك؟؟؟ آوه، اسمك؟ والاسم مدخل الشهية في علم المحققين، أمن أجل أن تتقمص هذه الفاتنة صفة المستنطق تروض وجهها على تكشيرة غريبة عن قسماته؟ ملامحها تطمئنك إلى أنها لا تستطيع أن تصير قاسية حتى ولو أرادت، لكن أسد القائد تيرسين لايزال رابضا بالقرب منك بل لعله إحدى وسائل الاستنطاق التي قد يلجأ إليها الوادي.

في نهم بدائي عيناك تتفحصان وجنتيها لا تزالان، وبدل اسمك سعيت وراء استرجاع اسمها "هارت" أو "تهار" كلمتان أخذتا من أسماء التين على ما تعتقد إنها قاعدة النبات دائما وهي تتفاعل في علاقة حميمية مع أسمائهم.

وعكس "ڤدو" و "را" كنت قد أخذت موقعا قريبا من القائد تيرسين تحت الصمت المطبق، وعلى المائدة الصخرية وُضعت صحون من خشب وفخار متفاوتة الأحجام كان أضخمها ما وُضع أمام سيدة الوادي، وبين الصحون شبه المتراصة تُركت فجوة مستطيلة على امتداد حجم المائدة، ماذا يعنون بها؟ لاتدري، وإلى جانب أقيمت بعض جرار من طين أدركت أنها من ماء الشلال فلا ماء بالوادي يتقدمه.

بعض معرفتك بعلم الآثار سمحت لك بافتقاد الأواني الطينية الصرف من على المائدة وأوعزت ذلك إلى عدم اكتشافها بالوادي عكس منطقتي "

"تيمزوين" المجاورة [ببلدة المعاطا] و"درمل" الجنوبية [بجبال القصور] اللتين أخذتا اسميهما من الشعير والقمح على ما تعتقد لأن أواني الطين إنما عاصرت ظهور الزراعة على أرجح ما قرأت.
ثم جيء بالطعام وإذا هو حساء من جنس نباتي لا تعرفه قد وُضع في الصحون، وما أن أذن بالأكل حتى شعرت بما يشبه مذاق أخلاط من الأعشاب البرية على جانب من لذة لولا حاجتها إلى مادة الملح، إنها نباتات الالتقاط التي قيل إن النساء هن من يقمن بجمعها فانتقائها ثم طهوها ما في ذلك شك.
القطف وظيفة المرأة إذن منذ زمن الوادي حيث لاتزال بنات زمانك هن من يقطفن القطن والحناء والشاي الآسيوي و...
وفور أن تناولت هذا المدخل الخفيف من الحساء النباتي شممت نشيش شواء إلا أن اندفاع حاسة الشم عندك بقيت أسيرة تحفظ سرعان ما عم منافذ شهيتك، فربما تعلق الأمر بشواء بعض زواحف الأدغال أو بصغار خنزير على أبسط تقدير وهوما سيوقع تصرفك إزاء أي من النوعين في تعارض مع نواميس الوادي التي يبجلها "قدو"
وأفرحك أن ما وضع أمامكم ليس سوى ظباء متقاربة الأحجام قد لفحت النار جوانبها أثناء عملية "الشواء" ظباء وليس ظبيا واحدا لكن خلو جماجمها من الألسن راعك فعلا، وحددت النظر أمامك لتجد أن كل ألسن الظباء أفرغت مجتمعة في صحن خشبي قد وُضع على الفجوة المستطيلة التي سبق أن تُركت فارغة على ظهر الطاولة الحجرية فجاء قريبا من الأميرة تهار وقد افتتحت المأدبة بتناولها قطعة من هاته الألسن التي لم تكن نيئة لحسن الحظ.
وخلفك ــ إذ التفتّ ــ تراءت لك حلقات المواقد الأخرى وقد تجمعت كل واحدة منها حول مائدة شديدة الشبه بالتي أمامكم إلا أنك بت تجهل نوع

أطعمتها، في هذه الأثناء كان نادلان أو قهرمانان أو طبّاخان قد خصا كل فرد من أفراد الطاولة الصخرية بظبي كامل غير منقوص إلا من لسانه، وقد تم ذلك تحت إشراف الوصيفة الخضراء شخصيا.

إن انفرادك بشاة كاملة دفعك للبحث عن "ڤدو" علك تأخذ بنصيحته عما يمكن فعله في مثل هذه الحال، أمطالب أنت ـ تحت صرامة تقاليد الوادي ـ بالإتيان على الظبي بكامله؟ وبمفردك؟ لست غولا أو أسدا لتستطيع ذلك وهو ما أردت استشارة "ڤدو" فيه.

ولكن أين أنت من "ڤدو" و "را" وقد انتسبا إلى إحدى الموائد الأخرى المزروعة على امتداد ميدان النيران، هل نسيا أنهما مكلفان بحراستك؟ أم أنك صرت في عداد رجال الوادي؟ من ستسأل إذن؟ من؟ من سيمحضك نصحا؟ إنها علامة حمراء تواجهها، إنها نواميس الوادي، الكل يلتهم الشواء بشراهة لقد افتكّوا حيرتك إنهم لا يتحدثون ولا يلتفتون حتى، إنه استمرار لطقس الصمت الذي سبق تناول الطعام وربما كان تمهيدا له.

وأربكك المشهد، صحيح أنك شرعت بدورك في تناول الشواء ولكن بوتيرة أقل بدت بطيئة وشاذة وغير منسجمة مع منطق الوادي، يا للعجب إن القائد تيرسين يكاد يأتي على ظبي كله ومثله فعل كهل أشيب جلس منذ فترة وجيزة في حين يحتل العرّاف أخمار درجة ثالثة، أما الأميرة أما الورع لول ومعهما رجال الصف الثاني كما أسميتهم فلحسن حظك لاتزال كميات اللحم المكدسة أمام كل واحد منهم كبيرة، بل وتحتاج إلى أكثر من أكول شره لكي تنفذ.

أوه! اللحم هذه المادة اللذيذة دائما، النادرة، الباهظة الثمن، كيف أصبحت زائدة عن حاجة الوادي إليها؟ إنها في الوادي لا ترتبط بغير القدرة على اِلتهامها، لا يُلهب أسعارها سمسار ولا يسعّرها جزار بل إنها خارجة عن قاعدة العرض والطلب إذ هي من الغابة إلى القدر أو الفرن مباشرة.

ما أروعك أيها الوادي، قلة من القناصين تتخم سكانك كلهم بلذيذ الشواء، بل وتمنح كل واحد منهم شاة برمتها مقابل لحظات من الاحتفاء الجماعي بعودتهم سالمين وقد أمنوا شر الوحوش المفترسة والزواحف السامة.

كان سؤالك القديم عن الرجال الثلاثة يلاحقك لايزال فعنهم لم تعرف إلا اسم ترغال الذي سقط بين يديك متضمنا بعض المعنى الذي ذهبت إليه، ما العمل واللحظة لحظة صمت؟ لحظة محظور فيها الكلام على ما حدست طوال فترة الطعام، أوه، لولا لعنة الصمت هاته لسألت أيضا عن هذا الكهل الذي أخذ مكانه متأخرا وقد احتفظ بقوس ونبال على ظهره وهو الآن ينهش بأسنانه عضد ظبي متوسط الحجم فمن هو؟ لا تدري وما سر السلوقي الذي ربض بالقرب منه وقد اتضحت نحافته؟
واشتدت غرابتك أكثر والأميرة ترفع يديها في شبه ابتهال صامت نحو الشلال وقد وجهت راحتيها إلى أسفل، هل هو إيذان باختتام المأدبة؟ أه. صحيح لكم أصبحت تحسن الاستنتاج لقد جددت الترحيب بك وقدمت إليك معاونيها تباعا:

- هذا القائد تيرسين، يليه عرّاف الوادي أخمار، فالورع لول، ثم ترغال المعروف بغلام وانقال لأنه لزم الراحل إلى أن أخذ عنه أعمق مواهبه في الخط الصخري أعني فن النقش على الحجر.

إلى هنا عرفتَ لماذا كان اسم وانقال من الأسماء التي رددها الورع لول أثناء جرعات التطهير بالشلال قبل حين، إنه لدليل على تبجيلهم للفن إذن، لكنك لم تقف على السر الذي قد يكمن وراء وضع اسم القائد تيرسين على رأس مقربي الأميرة تهار هل أن وضعية حربهم مع الأمير أطلس أخضعت الوادي ـ منذ طوره المبكر هذا ـ إلى ضبط عسكري رغم مظاهر

التبجيل التي يُحظى بها العرّاف أخمار والورع لول؟ أو أن طبيعة ليلتهم اقتضت ما يشبه التعبئة العامة؟

وأضافت الأميرة:

- وهذان مساعدا ترغال، أما هذا.

وكانت تعني الكهل:

- فشيخ قناصي الوادي.

وعندها فقط أدركت سر علاقة الكهل بالسلوقي وقد أخذ يناوله قطعا من اللحم بين الحين والأخر، وواصلت الأميرة تقديم معاونيها:

- وأما وصيفتي تارا فاعتقد أن ما لا تعرفه عنها أنها تقود مواكب نساء الوادي إلى حملات القطف.

إذن فالوصيفة الخضراء أسمها تارا علقت في سرك، ثم هززت رأسك شاكرا وقلت بتلعثم:

- كل هذا ينم عن خبرة مولاتي في اختيار معاونيها وحسن إسناد المهام إليهم.

الفصل السادس

عبق الإزميـــــل

طبقات الظلام من حول الوادي وعلى تخومه القريبة تؤكد استمرار الليل غير أنه في فضاء كالذي توجدون به لا يكتم الأنفاس بقدر ما يتيح لها أن تتفتح بغير حدود، الظلام يداعب ألسنة اللهب وكأنه يراقصها على أنغام الشلال الوافـدة في تراتيب موزونة كما لو أنها تبتدع بحرا جديدا من بحور الإيقاع.
واستعادت سيدة الوادي ثقيل صمتها ليتقدم الورع لول مشيرا إليها بيده التي ارتشف بواسطتها جرعات التطهر قبل قليل وهو يقول لك:

- أما مولاتي تهار فأميرة الوادي التي انتهت إليها إمارته.

وابتسمتْ فابتسم كل الذي حولها ثم بادرتك بلغة غير حادة:

- هؤلاء هم نحن فمن أنت؟

وخوفا من الإجابة كدت تبكي، إنها مساءلة ذكية لم تترك لك فيها أي مجال للاستزادة، وحاولت أن تستجمع كلمة ما، كلمة فقط، كلمة استهلال يحسن الابتداء بها، لكن كل الكلمات فرت تباعا، اختفت، فقدت قوة معناها إذ ما إن تسعى وراء تركيب إحداها حتى تلوي الحروف أعناقها وتتبدد من بين شفتيك.
الأميرة ليست بالحدة ولا بالقسوة اللتين قد تخشاهما منها فما يخيفك إذن؟ قلت لنفسك مشجعا، ما وجه الخشية لو أنك صرّحت باسمك؟ ثم عرّفت بنفسك كأستاذ لمادة تهجين الأنساق غير المقارنة؟ أم تراك تخشى أن يكون بحوزة الوادي تحفظ ما على اسم كاسمك؟! هل صارت كل الأسماء مشبوهة لأن الجهات الممارسة لحق الارتياب قد تعددت؟! وإذن ما دمت لا تعرف حقيقة الكمين عليك ألا تمنح الأخرين ما قد يتيح لهم التسرب إلى حقيقتك.

ودنوت من الكلام لكنه انغلق من أنت؟ هذا سؤالها وربما يكون هو سؤالك أيضا فالاسم مدخل الشهية في أعراف المحققين، وقلت بفهاهة غير معهودة فيك:

- أنا، أنا يا سيدتي، أنا زائر الوادي هو ذا اسمي ولك أن تتأكدي من السيدين "ڤدو" و "را"

وعكست الحلقة ضحكا مدويا كاد ينفلت من ضوابط آداب مجلس أميري كهذا ودعت بـ "ڤدو" وبقايا ضحكتها تشحن مخارج كلامها لاتزال وقالت له:

- تحلل من تحيتك وأخبرني يا عريف الوادي.
- مولاتي؟
- ما اسم ضيفنا هذا؟

وفوجئ بالفعل لأنه لم يكن يعتقد أن الأمر يتعلق بغريب الوادي صديقه، وظن أنه فعلا قد ارتكب خطأ ما أخل بنواميس الوادي:

- قال: "إنه نسي اسمه الذي عُرف به قبل طور الوادي فاكتفى بصفة زائر الوادي يا مولاتي"

فقالت وابتسامتها لاتزال تركب شفتيها لحسن الحظ:

- قال وكفى؟! هكذا وبكل بساطة وتصدقه أنت رجل أمن وفوق ذلك موكل بحراسة ثنية مكب الشلال؟!

ودخل "ڤدو" مرحلة من التصاغر لا يُحسد عليها فعلا لم يكف فيها عن أن يقدم مزيداً من مراسم التحية أو محاولة شرح ما طرأ من لبس غير أنه لما يسمح لأي حنق أن يطفو على تفكيره تجاه زائر الوادي، تجاهك، وإلى هنا قال القائد تيرسين بعد أن استأذن الأميرة موجها كلامه إلى "ڤدو":

- إذا كان في وسع ضيف الوادي أن يقول ما يريد فليس في إمكان قائد نقطة المراقبة أن يتقبل كل ما يقال له.

وقطب "ڤدو" واستعادت الأميرة جديتها وكأنها تختتم حديثها معه:
- زائر الوادي؟ هذه قد تكون صفة أنتسابك إلى الوادي لكن من تكون قبل عهدك بالوادي؟

وانتحلت اسما وقلت فيما يشبه الخنوع ولكن بخبث:
- اسمي عبد الباقي وأنا مجرد موظف بسيط يا مولاتي.

وأعادت إليك جأشك كلماتُها:
- الوادي يتغاضى عما قبله ثق أن الحقيقة ستُكتشف.

واستنتجت من همسها للقائد تيرسين أنك ربما خضعت لنوع أخرمن الاستنطاق أو الاكتفاء بإحصاء أنفاسك من بعيد وكان هذا أهون لديك، وفي حركة فهمتها على أنها إيذان بالانصراف قالت الأميرة:
- الآن وقد تقضى ميقات الضيافة عليك بالتزام عرّاف الوادي، الشيخ أخمار إلى جانب "ڤدو" و "را"

وحيّاك الشيخ أخمار بحركة أمامية من رأسه إلى أن لامس أسفل لحيته أعلى منحره ثم بادرك الورع لول بقوله:
- بكلمات سيدتي يكون الوادي قد بارك انتسابك إليه يا ولدي فلتكن وفيا لشعائر شلاله.

وانحنيت طاعة لنصيحته، وحده الورع كان حاسر الرأس وقد انسدل شعره إلى الخلف مكوّما عبر أذنيه حتى بلغ لحيته التي شكلت امتدادا له نحو الأسفل في ضفائر متعددة، أما لباسه فكان لا يختلف عن لباس الكهل

القناص إلا في بعض تفاصيله بحيث بدا فضفاضا نوعا ما، عبارة عن كساء وحيد.

ولإمر ما كان محاربو الوادي هم من ينفردون بارتداء جلود السباع والنمور عكس الأخرين، لم تعد دائم النظر إلى الأميرة كسابق دأبك وكأن انشغالك بما حولها قد استأثر بوقتك، والغريب أنها هي من تحاصرك عيناها بين حين وحين، وأحيانا في تركيز لا يخلو من اهتمام حتى ليخيل إليك أنها ستنطق بكلمة ما لكنك أوعزت ذلك إلى ندرة هندامك بالقياس إلى مظاهر سكان الوادي.

ولما همت بالانصراف صفقت بيديها فقفزت إلى جوارها الخضراء "تارا" وغادر القائد تيرسين موقعه ساعيا أمامها على عادته، ثم تحركت هي نحو الكهف الأوسط، ضمن حمَلة المشاعل فأحسست بوحشة المكان، وكان الجميع قد وقف تأدبا لانصرافها، وأعدت البحث عن "قدو" و "را" لكنهما لما يلتحقا بك بعد رغم أن كل أفراد حلقات المواقد وقفوا لوقوف الأميرة، بل كان من دنا منك هو العرّاف أخمار ليسر إليك:

- فور انتهاء مراسم الانصراف سيدلك قدو على الكهف الثالث، مكان إقامتي لنبدأ العمل.

وسألت نفسك:

- العمل؟!

وحاولت أن تسأله أي عمل والليل يكاد ينقضي؟ لولا أنه انصرف وإلى جانبه حارسان، كدت تصرخ حنقا مرددا في سرك:" الكهف الثالث؟ لمَ لا يكون الأوسط حيث تقيم سيدة الوادي؟ ماذا أصنع بالعرّاف؟ فلتذهب الصيحة ومعها كل أسرار الوادي إلى الجحيم فأنا لست بعالم اجتماع ولا

بعالم آناسة لكي أتقصّى ظاهرات الوادي، أيضا لا تهمني أثاره فما أنا بباحث أثار بل يهمني وجه سيدته لأقضي الساعات الطوال متمعنا فيه"
ومن صدرك طارت أمنية لاعجة، من يدري ربما دعتك هي الأخرى إلى كهفها ذات ليلة هناك حيث يعرب الوادي عن فتنته ممثلة في وجه تهار وقوامها وصوتها.
مكوثك بالمكان، وقد انصرف الجميع، لم يطل إذ سرعان ما حضر "قدو" بل وإلى جانبه "را" فاستقبلت فيهما نماذج قريبة من عالمك، من مشاعرك، من أوائل عهدك بالوادي وفعلا قبّلك "قدو" على رأسك كما لو أنه اشتاق إلى رؤيتك وكذلك فعل "را" الذي يبدو أن آثار الكلمة التي أطلقها في حقك لاتزال تحوم حول نظراته استحياء.

- هيه، كيف أمضيت نواميس العشاء؟
- في نشوة من لطفكم جميعا.

وأفرحت كلمتك "را" بحيث استقبلها كعفو يشمل الجميع حتى من أخطأوا في حقك مثله، وما أن دعياك إلى السير معهما حتى سألت:

- إلى أين؟
- إلى كهف عرّاف الوادي هل نسيت؟
- ومن أخبركما بذلك؟ يبدو أن كل شيء كان مرتبا؟
- لا مجال للصدفة في عمل الوادي تأكد.

وحين اقتربتم من الكهوف ترامى إلى ذهنك ما سمعته عنها أثناء ثورة التحرير ضد الاحتلال الفرنسي بحيث لم تكن كهوفا محايدة ولا انكمشت على نفسها منذ انقضاء عصر الوادي لقد قيل إنها تحتفظ ببعض جثامين شهداء الثورة لاتزال.

انصرف "ڤدو" و "را" عائدين عكس ما تمنيت، وأمام بوابة الكهف حدثك العرّاف أخمار عن الفنان "وانقال" كبير خطاطي الوادي الذي قضى والأزميل بين يديه وفاء منه لفنه، كانت أمنيته أن يموت على الصورة ذاتها، يموت محتضنا أحد رموز النقش الصخري وها قد حدث.
وبمدخل الكهف أذهلتك رسومه، لم تكن فقيه آثار لكي تلامس تدفق الأزمنة على وجه الصخور ولكنك كنت ممن يحسنون تذوق المآثر التي تُغالب الزمن.

- فنان الوادي قبض على ناصية برهته في لحظة إشراق هاربة.

قال أخمار واستحضرت مفهوم اللحظة (الآن) عند فلاسفة الزمان تلك التي لا يلاحقها ما قبلها ولا تندمج فيما بعدها، إنها زمن فني بحت ينغلق بداخل السيرورة تماما كمركبة في بحر تنفرد عن الموج رغم أنها سابحة عبره ولا تتحرك إلا به دون أن ينال منها فعل الملامسة، روعة ما ترى أوحت إليك بهذه الخاطرة وتخيلت وانقال من رسومه وقد استقل عن الزمان دون أن يوجد بخارجه ولم يعلن قطيعته للمكان حتى وهو يقيم معادل كون مختصرا له فأي فنان كان وانقال؟!
كان نقّاش الصخر هذا قد أفرغ عبقريته في جزئيات المشهد الماثل أمامك بحكمة ضافية، فالظباء تمرح على ظهر الصخرة في حالات اطمئنان لا فزع يضايقها ولاهي مدفوعة نحو توثب ما، أما الزرافة فمحتفظة بكل الوقار الذي توحي به قامتها الفارعة ومتزن حركتها عادة بينما لا تواجه الثيران الساعية في انطلاق أي طارئ.
وفوق هذا التجانس الذي اختيرت لتحقيقه أنواع محددة من الحيوان البري شدت نظرك روعة الدقة التي بلغها النقش إلى حد أخذت تتساءل فيه إن كانت هذه الحيوانات قريبة من موقع النقّاش ساعة إخراجها في جداريتها

الصخرية المنقوشة؟ أي لحظة تدفق الزمن الفني أم تراها ظلت ماكثة بالكهف إلى جانب النقّاش في تآلف مع السكان سمح للمبدع بنقل كل تفاصيلها إلى لوحته؟ أم تراها كانت بمنعزل عنـــــه فاعتمد على ذاكرته في استخراج شريط صورها بكل هذا الفيض الفني من المعاني؟
ورغم أن أسئلتك هذه اعتبرت تعجيزية في نظر العرّاف أخمار فضلا عـن "قدو" و "را" باتت تتوارد مما دفع بالعرّاف أخمار إلى الاحتفاظ بحيرته قبل أن يرفض القول باحتمال اشتراك مجموعة من النقاشين في إبداع جداريات الصخور الأطلسية، حتى وإن تم ذلك في زمن كان فيه كل شيء جماعيا كالقنص والقطف والسقي والإطعام وربما الجنس أيضا على قول من أضافوه إلى الأشغال الجمعية وإن كان لك تحفظ على رأيهم.

- هل لذلك لم تُذيّل هذه النقوش باسم مبدعها؟

تساءلت في سرك وقد تراجعت نظرات العرّاف أمام فرضية وجود نقاش زائر كان يحل بالكهوف الآهلة لتخليد محيطها البيئي على واجهتها الصخرية.
تشبث عرّاف الوادي بفكرة النّقاش وانقال التي لم تطمئن إليها ورأى كل حديث عن النقش خارجها مجرد إنكار لحقيقة ثابتة، وكما لو أنه يختتم الجدل قال:

- كلما حلّت ذكرى وفاته أطفأنا النيران للحظات لأن إظلام المكان أنسب لمناجاة أرواح الأموات.

وأضاف العرّاف أخمار وهو يشير بيده نحو شجرة صنوبر حلبي قريبة من الكهف:

- هناك تحت الشجرة العجوز كان الخطاط لا يستريح إلا قليلا لأنه لا يأمن للزمن وثبة فأفرش نحور الصخر لرسومه حتى يقرنها بسرمدية الزمن لكي تنام في آمان كوصايا "سومر" وأسرار "جريكـو"

وعرفت أن "جريكو" هو اسم مدينة "أريحا" القديم، وأريحا موطن رواد الزراعة والمزارعين الأوائل في فلسطين، لكن ما يشغلك ليس الترجمة بل كيف اشتركت "سومر" و"أريحا" في الدلالة على مآثر الإنسان القديم؟ تماما كما تشتركان في صنع الفعل اللافت في زمانك الراهن؟ أخذ العرّاف أخمار مكانا في صدر الكهف طالبا إليك الجلوس قبالته وهو يقول:

- الحجارة روح الوادي السارية في كل أوصال حركته، إنها تعيشه كما أنه يعيش على متنها لأنها في النهاية هي وحدها ما يحفظ أنماط حياته.

ثم قام وأخذ يمرر يده على وجه الرسوم الصخرية وأضاف:

- وحدها الحجارة هي مظهر عصرنا لم ولن تفقد وظيفتها كسلاح في أي عصر من العصور.

وقلت لـــــه متسائلا:

- حتى في عصور الحديد والفولاذ؟

وأكد الشيخ أخمار معترضا:

- حتى في عصور الحديد والفولإذ لأنها ببساطةهي وحدها ما يُتاح للجميع عند الحاجة كوسيلة دفاع بل ووسيلة إعمار.

وأقررته على رأيه والتفت إلى جدارية داخل الكهف وهي تعرض رسومها على ضوء نار منبعثة من الزاوية لتدرك أن فنان الوادي لم يحتف إلا

بحيواناته العاشبة بحيث غابت عن المشهد المنقوش المفترسات وكل الأنواع اللاحمة كالأسود والنمور والفهود والذئاب وغيرها رغم أنها من زبائن مياه الشلال وقلت:

- لعله أشفق من عرض مشاهد الافتراس؟

وسكت العرّاف ربما ليلهمك أنه هو من يشفق على قصور نظرتك فأضفت:

- لم يكن خطاطا عدوانيا إذن؟

واتسعت بسمة شامان الوادي على غير عادة منه، لأول مرة تشاهد ابتسامته وأفرحك أن تكون كلمة صادرة عنك سببا في افتكاكها منه.
رغم خفوت نار الزبوج البري أحيانا التي يسهر على إذكائها أحد خدم الكهف، بصرك منصرف إلى محتوى الجدارية التي عاصرت أبنية أريحا فيما يبدو وهي تعكس رسوم قطيع من الحيوان، وكدت تلجأ بالسؤال إلى العرّاف أخمار:"إنها الحيوانات ذاتها التي احتوى عليها سطح مائدة الطعام قبل حين إلا أنها هنا بأعداد أوفر، زراف، أبقار وظباء و، وأخرى لم يسعفك بصرك في تشخيصها فلماذا هذه الأنواع بالذات؟"
وقلت:

- سيدي لماذا هذه بالذات؟ لعلها ذات صبغة طقسية؟

ورد جموحك في ثقة:

- كلا، بل لأنها الأكثر بالوادي أما الزراف فلأنه الأندر يا ولدي.

وكدت تقول إنها الأندر على صخور أطلسي الجزائر الاثنين معا بحيث لم تكتشفها إلا هنا وفي "كدية عبد الحق"[بجبال القصور) على قول من حقق حيث يوجد رسم زرافة ذات رأس مغاير، مختلف، نادر، وربما بمواقع قليلة لا تعرفها، لكنك أسرعت بالتراجع عن الكلام إذ كيف يصدّق هؤلاء

الناس حقيقة اندثار ذاكرتك وجهلك باسمك وأنت تتحدث عما لا يحتفظ به إلا ذوو الذاكرات المتينة؟! وما دمت تجهل الأبسط حقيقة فلا تدّعي استرجاع الأشد تعقيدا.

الوادي لم تكن قادرا على مخاطبته رأسا لأنه لا يحسن إلا تلقي لغة الخطاط وهمس الأميرة، أما الشِّعر فلعله لا يُسمع خارج طقسه الديني بالكهف السادس كما أفاد "قدو" واحتفظت بجهلك لسر المناسبة وإلى الخلف تراجعت.

وقبل أن يكمل تعليقه على ما دار بخلدك فاجأتكما الوصيفة الخضراء شخصيا وبرفقتها اثنتان من أنيقات الوادي وقد حملت أولاهما آنية فخارية نادرة الزركشة وبها لحم ونبات مقتطف قد سُلق، وتأبطت الثانية إناء من بيض نعام أحالته الزخارف التي صبغت جوانبه إلى إبريق مليء بمشروب ما، ظننته عسلا للونه، كان عكس أباريق الشاي الصينية لا يحمل توقيع صانعه، ففي وادي تيفريت لا أثر يحمل اسم مبدعه، كل النقوش والأواني عديمة العنوان، فلماذا أنت وحدك من ينبغي أن يكون له اسم في الوادي؟

وقفت الخضراء ووجهت خطابها إليك راسا:

ـ سيدتي تقول إنك ربما احتجت إلى مزيد من

الطعام لأنك لم تكمل الظبي الذي وضعناه بين يديك أثناء وجبة العشاء، ولذلك أرسلت إليك بهذه التكملة.

أي فضل حزته؟ وكتمت فرحة غمرتك وأنت تقدم تشكراتك وامتنانك للأميرة ووصيفتها الأثيرة غير أن سكوت عرّاف الوادي قلل من سرورك، ربما كان الموقف في نظره لا يحمل كل هذا الاستثناء الذي تتصوره أنت، هل سبق للأميرة أن فعلته مع ضيوف سواك؟ هل هو محض مبادرة من الوصيفة الخضراء دون أن تأخذ إذن سيدتها؟ هل للوصيفة نية ما في التقرب منك؟

كلها شكوك أخمدت انشراحك رغم بوارق الأمل، انصرفت الخضراء وأخذت تتناول الطعام وقد رافقك العرّاف بل ومنحتما خادم الكهف ما تبقى لينصرف بصرك إلى دقيق صور عكسها ظاهر الآنية الفخارية التي تناثرت على أرضيتها في غير نظام، مكاشط ومعالق وأدوات ربما هي لسحق الخضاب، وخناجر حجرية ومثاقب وأحجام متفاوتة لما تتعرف على هويتها بعد.

بالوادي ليس هناك ما لا يحمل بُعدا حتى هذا السيف الحجري الملقى إلى جانب وسادة العرّاف أخمار يشدك توقيع نحاته المجهول، هل هو على عكس عادة الوادي يحتفظ باسم صانعه؟ أشياء الوادي لا تحمل أسماء بل تتضمن أبعادا، والبُعد قراءة مختلف عليها بالضرورة.

لم تكن على كبير مهارة في الإلمام بالفنون الصخرية، لكنك اعتبرت ما تراه نقشا وليس حزا فمرحلة الحز، كما تعلمت، لم تظهر إلا مع ظهور الحصان الذي لم تقع عيناك عليه ضمن رسوم كائنات الوادي، ولكنه كلام لا يجب أن يصدر عنك، عن رجل يجهل اسمه وما يتعلق به، أسكت إذن، حادث نفسك فقط عن الحصان، تساءل عن حقيقته كما تريد: هل صحيح أنه عرف أرض إفريقيا عن طريق الهكسوس؟ هو القول الشائع حتى الآن. وبمجلس العرّاف مرّ قط أسود فاعتقدت أنه ربما لاقى لونا من الاحتفاء الاعتقادي عندهم، لكن عدم اهتمامهم به أوحى إليك أن الاحتفاء بالقط لم يأت إلا لاحقا في الزمن للتقديس الذي أولاه سكان الشمال الإفريقي القديم للكبش، وهو ما استلهمه خروف آمون بالأقصر فيما بعد أو ربما تزامن الاعتقاد بهذا الكائن في المنطقتين معا.

وقد حملك منظر القط على التفكير في الوحوش المحيطة بالوادي، كيف يأمن هؤلاء الناس على حياتهم في وسط مخيف كهذا؟ فلو أن المفترسات اقتحمت عليهم هذا الكهف ماذا عساهم أن يصنعوا؟ ولما أحلت السؤال

على العرّاف أخمار لم يتحمس للإجابة، وربما لسخافتها وجّهك بدوره إلى خادم الموقد قائلا:

- أجبه يا زايطا.

زايطا؟! إنها أسماء نبتت ككل حشائش الوادي كما تعتقد، وفعلا بعد أن وضع قطعة الخشب التي كانت في يده، تصدى زايطا للقول بصوت كالمواء تماما تشوبه رقة غريبة وتباطؤ في رصف الكلمات:

- ليس من عادة وحوش الوادي أن تعتدي على سكانه فكلانا محتاج إلى خضرته ومائه يا زائر الوادي.

وضحك زايطا وهو يسترسل في زهو:

- بل ربما احتاجت الوحوش إلينا وأحتجنا إليها، أليس الجميع بأبناء الوادي؟

وحرك الشيخ أخمار عينيه إعجابا بكلام زايطا ثم أكمل:

- سبق وأن أفهمتك أننا بواد مسالم وهي الصورة التي عكسها خطاطنا الكبير وانقال على أوجه الصخر وقد استنتجتها من تلقائك، نعم نردّ الاعتداء كما فعلنا مع أطلس لكن لا نهاجم خارج وادينا.

وأجّلت سؤالك عن " أطلس" هذا، لأنك تتبعت كلمات العرّاف وعينك ملقاة على سحنة زايطا، هذا الرجل الضئيل الجسم هل هو قزم؟ أم في حجم القزم؟ وإن كان قزما فما الذي قذف به إلى وادي تيفريت؟ فما هو مأثورعندك أن الصخر أنبأ عن صور أقزام بمنطقة يُقال لها "طرف النخيلة" تماما كتسريحة القذال، فكيف حدث تفاعل المكانين؟

راوي الخبر على ما تذكر أعتبر"طرف النخيلة" هذه أخر موقع وصله الأقزام أثناء نزوحهم شمالا نحو منتهى واحات النخيل بالأطلس الصحرأوي، وهي رواية تحتفظ بها إلى أن ينطق الحجر بما يخالفها.
وعدت إلى نفسك تسألها، ما الذي يدفعك إلى كل هذا البحث والتقصي في شأن الاقزام؟ ألمجرد أن تنفي عن صاحبك الذي أخذت النار كل اهتمامه صفة القزم؟ وطمأنت نفسك كما لو أنك تطمئنه أنه ليس بقزم إنها قامته وقد جاءت أقل طولا من أحجام رجال الوادي فقط وفقط.
كان أخمار يظن أن سكوتك الذي أعقب كلمته إنما يتضمن احتجاجا على إسناده المحاورة إلى خادم الكهف وإعطائه صفة الطرف فيها، أما أنت فرغم أنك قابلت توضيح الخادم بإنصات طبيعي أردت لهذا الشك لو صدق أن يختمر في ذهن العرّاف، وأمام إصرارك على الصمت انصرف أخمار إلى داخل الكهف حيث ينبعث بكاء أطفال وصخب نسوة كما لو كن بصدد تهيئة وجبات طعام.
وما أن انفرد بك الخادم زايطا حتى فاجأك بقوله، وقد حافظ على رقة صوته التي لطالما استغربتها لأنها تشبه مواء القطط:

- ما علاقتك بالأميرة تهار؟

واندهشت فعلا:

- أنا؟

وقهقه زايطا إلى أن بلغت رقة صوته أقصى أطوارها وهي تتحول إلى ما يشبه بكاء صبي هذه المرة وقال:

- وهل بالجناح سواك لأخاطبه؟

وأنتقل كلامك إلى مرحلة جد:

- أية علاقة تترتب عن لقاء عابر تم على طعام عشاء؟

ومجددا أرسل قهقهته التي أخذت تتقزز منها وقال:
- وكيف أرسلتْ إليك بتكملة العشاء ومع وصيفتها الخاصة تارا، تارا وليس مع تارو؟

وشدد على أحرف الاسم الأخير وسألته:
- ومن تارو؟
- وصيفتها من درجة ثانية.

كان غرضك من محاورة زايطا هو تطييب خاطره كي يسترسل في حديثه عن علاقة الأميرة بضيوفها لعلك تكتشف في معاملتها لك تميزا ما، ورحلت بذهنك باحثا عن معنى تارو، ليست نباتا بالتأكيد ولا تبعيض كلمة كـــ "ڤدو" و "را" وقلّبت الكلمة على أوجهها، ذاكرتك لا تغفل الماضي البعيد بل كلما توغلت فيه إلى أبعد إلا وتوهجتْ واستعادتْ مخزونها، هي ذاكرة عجيبة مضبوطة على الفائت وحده إذن، واهتديت إلى مدلول الكلمة إنها تعني ما تسمونه بـــ "الخُلاّلة" التي تمسك برداء المرأة على مستوى نحرها بإبرة أو اثنتين، والكلمة ذات مرجعية تارقية كما تنبهت، لكن الأمر لا يعني زايطا ولا غيره من أهل الوادي ولذلك لم تبرزه كمحور نقاش بل صرفت عنه النظر، وعدت إلى سابق سكون أغرى الخادم بإضافة كلمات لم تتمكن من استيعابها، إنها غير موجهة إليك ولا حتى إلى سواك، كان الخادم زايطا كمن يحادث نفسه، لكن حديثه الانفرادي هذا لم يأت بالتأكيد إلا انطباعا عما كنتما تخوضان فيه.
- ماذا قلت؟

وكشر عن أنياب بدت كما لو أنها تفوق قامته إلى أن أخافك مظهره، وقال برنته شبه النسائية:

- إنما أحادث نفسي.
- تحادث نفسك وأنا معك؟

وركن إلى لغة انهزامية:

- الخادم قلّما حادث غير نفسه إلى أن صار يفشل في انتقاء الكلمات القليلة التي قد يوجهها إلى خارج نفسه.

ورغم أن حديثه المقتضب استرق عطفك إلى أن رققت إليه أسرعت بإثارة ما يشغلك:

- كيف تفسر صنيع الأميرة معي؟

وانتظرت كلماته كما لو أنها تأويل حلم جميل لولا أن العرّاف أخمار باغتكما وقد عاد من داخل الكهف يحمل قنينة سعفوية ناولكها وهو يقول:

- إنه ماء الشلال إ شرب.

وتراجع فضولك، لقد اعتقدت أن الأمر يتعلق بلبن، أو حليب أو سائل محبب، أما الشلال، الشلال، الشلال، فكان الأحرى بمائه أن يقتصر على الأواني الفخارية التي تفننت صانعتها في إبداع أشكالها وأحجامها وزخرفها.

في قراءتك لعلاقتهم بماء الشلال لم تحسم سر ارتباطهم به، أهو ناجم عن ندرة الماء العذب بالوادي؟ أم لأن ماء الشلال يحمل مغزى أخر في نفوسهم؟ لا أحد أفادك بأنه محل تقديس رغم أن استنتاجك يقترب من هذا المعنى، فإذا لم يُحظ بالتقديس فأكيد أن نظرتهم إليه تتجاوز مجرد تفضيله لطعمه، أو لكونه ماء متدفقا من عل عكس المياه الجارية.

تناولت رشفة يسيرة من القنينة السعفوية وأبقيتها إلى جانبك، في حين انكب زايطا على النار يذكي جذواتها بزفير يحاول تمديده إلى أبعد حد ممكن وقد تعالى لهب ما أضافه إليها من قش وأوقاص.
ما يشغل بالك ـ إلى جانب جمال الأميرة وروائع الخطاط وانقال ـ أمران: سر الصيحة المخيفة مضافا لها حديث الورع لول حول ثعبان الركام القصي، أنظر كيف جاء ترتيب الأربع في بالك وقد أثارت في نفسك شعورين متقابلين، شعور رغبة وشعور خوف فبقدر ما هزت الأميرة والخطاط رغبتك وألهبا خيالك، بقدر ما شكلت الصيحة والثعبان مفزع هدوئك.
ولأنك لا تسأل العرّاف عما ينتابك من إحساس تجاه الأميرة، ولا تستزيده وقد أفاض في حديثه عن الخطاط وانقال، بقي عليك أن تستوضحه بخصوص الصيحة المخيفة وثعبان الركام القصي، فهل آن آوان مفاتحته فيهما؟ لا تدري فربما كان للرجل مواقيت معينة للمكاشفة في أمور على حيز كبير من الخطورة كهذه.
وأعدت جرعة أخرى من قنينة الشلال إرضاء له وقلت:
- سيدي ما حقيقة الثعبان الذي ذكره الورع لول في تراتيل التطهر؟

واغتصب ابتسامة وقال مصححا:
- بل مذاق التطهر، مذاق.

إنهم هكذا، ما أحرصهم على التدقيق والتصويب لا يسمحون باستبدال الكلمة ولو بأخرى تؤدي المعنى بنفس الدلالة.
وفهمت من العرّاف أنه في إحدى الليالي الماطرة هاجم الوادي ثعبان ضخم، أسود اللون على عنقه علامة في شكل هلال كان حديث عهد بالمنطقة، وحسب أخمار فإن الدفء هو ما كان ساقه إلى الاحتماء بالحيز

الآهل من الوادي ولما تصدى له الرماة أخفقوا في وقف زحفه المخيف على براعتهم في الرمي وقد تعالى فحيحه وتلاعبت ألسنته بحدة مما أثار هلعا عاما أدى بالسكان إلى مغادرة الكهوف السبعة نحو المنحدرات والأحراش طلبا للنجاة، وهو ما لم يحدث من قبل إلا أثناء هجوم الأمير أطلس على تيفريت.

وأخذ الثعبان يتقدم ويتقدم إلى أن كاد يحتل أحد كهوف الإقامة، عندها نصح الورع لول بإكرامه من خلال إحدى الطرائد وكان أرنبا، على أن يُضمّخ وجه الطريدة بالدماء، فما كان من الثعبان إلا أن التهم الأرنب ثم انصرف نحو الركام القصي حيث يعتقد أنه يقيم.

ومن يومها ترتب على الوادي طقس إطعامه بطريدة كلما جاء القناصون بصيد جديد حقنا لدماء سكان الوادي من اعتداءات الزواحف، وأطلق الورع لول على هذا الطقس اســـم ترياق الوادي، والغريب كما أضاف العرّاف أخمار، أنه ما من قناص قد أصيب بسم حية أو عقرب منذ أن اتسعت مدونة طقوس الوادي لتشمل طقس الترياق هذا.

وعلى تواضع إلمامك بعالم الحشرات علقت في نفسك، إن الزاحفة عادة لا تقيم بالمكان الواحد مطولا إلا إذا كان هذا الثعبان قد تقمصه جني، سيما وأن العرّاف قد أبلغك أن كل الرماة ممن حاولوا إيقافه قد أصيبوا بما يشبه الهوس والتوعك وشلل مؤقت في أحد الأعضاء.

وقلت مندفعا:

- هل تعتقدون أنه طوطمكم؟

وضحك الشيخ أخمار وهو يلفك بنظرة تعجب:

- كيف؟ وهو لم يفد على الوادي إلا مؤخرا؟

ثم استرسل في جوابه كعادته:

- الطوطم هوما تنتسب إليه لا ما ينتسب إليك، لا ما يجيء لاحقا في الزمان والمكان.

وكأنه يرغب في استبدال محتوى الحديث سألك العرّاف أخمار في عياء وقد أخذ منه ما يشبه النعاس:

- هل تنوي المقام عندنا؟

وسكتَّ لأن السؤال فاجأك فعلا، فأضاف:

- آلا تخاف عودة مواسم الجليد والفيضان؟! إنها

لا تلبث أن تعود ولا نقابلها إلا بما تعلّمناه من
قساوتها وحدّتها، أما أنت.

وكما لو أنك بصدد الشروع في البكاء قلت في خنوع:

- لا أعرف غيركم يا سيدي.
- لا تسيء فهمي يا ولدي على الرحب والسعة.

قال أخمار، ثم أخذت أحاديثه تتقاطع كما لو أنه نائم، هل هو يحادث عالما أخر غيرك وزايطا؟ وحدك من تثيره طريقة حديث العرّاف عكس زايطا الذي يمارس تزويد الموقد بالحطب في غير اكتراث بما سواه.

في محيط زايطا تتناثر في طواعية مواد وأدوات ذات صلة بالنار، هي أكوام من خشب الصنوبر الحلبي والزبوج والضرو، إلى جانب أكثر من قدّاحـــة حجرية سرعان ما أخذت تتأمل إحداها بعينيك، إنها إحدى مبتكرات "تيغنيف" نماذج من روائع براءة اختراعها المبكر.

الفصل السابع
أنـــوار الغسق

بسماء تيفريت اختفت النجوم تباعا وكأنها تعتبر أفق الوادي بؤرة جاذبة تخشى السقوط في أتونها كمثلث برمودا، أو ربما كان للمجرّات إحساس بطبيعة الوادي فتجنبت مزاحمة ثالوثه المفضل من ظلمة وماء ونار، ونيابة عن النجوم استمرت حركة الوادي دائبة، ترفل في ليل دامس وكأنها تحدُّ من سكونه.

اكتفى الوادي بثالوثه إذن، وهو مكتف في كل شيء، في معاشه، في أساطير كبيره أخمار، وبحكمة شيخه لول، وفوق ذلك بجمال سيدته تهار المرأة التي لم يبايعها إلا لفرط جمالها.

الخادم زايطا يشيع النور بطريقته البدائية، يقارع جحافل الظلام وقد تجمعت في وجه الكهف مُتيحة لوحوش الوادي فسحة مرح وارتواء غالبا ما تنتهي بتناطح ومغالبة وعدْو وسباق.

وتيقنت أن النهر وحده هو مصدر الماء لكائنات الوادي، تأخذ منه حصصها في ترتيب زمني عجيب، بحيث يتاح لكل نوع منها وفق توقيت عرفي متفق عليه ضمنا، إنه عقد اجتماعي بصيغة أخرى تم في زمان ما بين الإنسان والحيوان والنبات، ولعله التعايش الذي عبّر عنه زايطا بطريقته حين أراد أن يقربك من صورة الحياة في الوادي.

إيــهٍ، وادي الشلال، ما أروع يومياته، نهاره لسكانه وليله لوحوشه وما بينهما لنيرانه وأعراس شلاله.

أخذ أخمار ـ وهو بين نوم ويقظة ـ يحادث نفسه إلى أن غلب على ظنك أنها عادة تصيب القوم من أهل الوادي، ولم تفهم عنه إلا تكرار نصيحة كنت قد سمعتها منه وهي:

- لتعرف نفسك عليك أن تلمّ بما حولك.

وقبل أن تقف على مراد كلامه استولى عليه انكفاؤه، هل نام أم أنه يتناوم؟؟ وكما لو أنك طبيب اقتربت منه لتتسمع ما قد يصدر عنه من شخير أو غمغمة أو نبس، في هذه اللحظة أومأ إليك الخادم زايطا بالتزام السكينة كما فعل هو.

كان صمت أخمار قد انضاف إلى سكون الوادي الذي لا تقاطعه إلا أصوات وحوش يبدو أنها وردت مهوى الشلال، أصوات لا تميزها، فربما صدرت عن وحيد قرن أو فرس نهر أو فيل هائج، وانصرف سمعك إلى توقّع ما تخشى، الصيحة المخيفة، لكم غلب على ظنك أن الليل سيحملها إليك في هذا المكان الغريب مخترقة بقية ما تسمع من أصوات.

ولكنك في ذات الحين منيت نفسك باستقبالها ما دمت بحضرة العرّاف أخمار، فوحده أخمار من سيزيل لبسها ويكشف حقيقة مصدرها، وربما علّل علاقتها بالوادي.

بت بين الخوف والرجاء كزاهد صادق معتكف بخلوة، صحيح أنك تخشاها لحدة نبرها وتواقيع رجعها، بيد أنك في الوقت ذاته تتمنى سماعها للوقوف على سرها بواسطة شيخ الوادي أخمار.

أصوات الوحوش أخذت تتساقط من بعيد، ورغم ارتفاعها بات العرّاف يغطُّ في شبه سبات، لكم ألفتْ أذانُهم ما يخيف، رباطة جأشك لم تمحُ خاطرة ركبتك منذ أن غزت هذه الأصوات هدوء الوادي، ماذا لو انكشفت الظلمة عن إحدى المفترسات الضخمة وقد هاجمت الكهف الذي تقيم به؟

- فهل مرأى النار يخيف الوحش أم يجتذبه؟

لا تدري ولا حيلة لسؤال زايطا أيضا وقد أشار بالتزام السكينة، بين حين وحين كان العرّاف يفيق من إغفائه ليعود إليه وكأنه يتنقل بين عالمين في لحظة واحدة، ما يخيفك أن إغفاءته تطول أحيانا إلى أن ينصرف بصرك نحو زايطا خوفا من أن ينام هو الأخر.
زايطا، لحسن الحظ، لا ينام تماما كموقد النار الذي يكابد السهر على إذكاء جمراته، هل انطفاء النار ـ لو حدث ـ جريرة في أحكام نواميس الوادي؟ وفي عرف الفقيه "قدو"؟ ربما.
نظرات زايطا تبدو مستقرة ثابتة لا ترسم أي استغراب أو تخوف كاللذين يسكنانك أمام وضع العرّاف أخمار، هل هو طقس يمارسه بفائق ذوبان فيه وقد أراد لك أن تتشبّع من منظره؟
كل السلوكات روحانية في حياة الوادي، أوتلك التي توحي بمعنى روحاني، ـ ورغم أنها كلها غريبة ـ لا شيء منها يبعث على الغرابة في اعتقادهم إلا ما يتملكك من دهشة أمامها، دهشة البداية التي واجهها الإنسان الأول فزعا من مناظر الطبيعة قبل أن يصير هو ذاته مبعث دهشة في ما يطرأ عليه من أحوال، نام العرّاف فعلا وأنت مسترسل في خواطرك لاتزال، إذا كانت تلك حال العرّاف فكيف بالورع لول رجل الطقوس والتقوى؟ وما أن ذكرت اسمه في نفسك حتى تحرك العرّاف مشيرا عليك بالرحيل عن الكهف.

- سيدي إلى أين في مثل هذا الظلام الدامس؟!
- الورع لول يدعونا ألا تسمع؟

وذُهلت حقا وأنت تنصرف خلفه وتقول:

- أسمع ماذا؟

- تعال لا تكثر من الأسئلة ها قد بلغنا الكهف الثاني إنه قريب جدا.

يكاد مشهد كهف العرّاف ينسحب على مدخل كهف الورع لول، إلا في كثرة المواقد وعدد خدم النيران، كل زوايا الكهف تعبق بروائح نباتات وحشائش قد أضفت عليها تراتيل المعلم لول نسبة عالية من القداسة فاقت ما تركتم عليه كهف العرّاف أخمار.
يا للغرابة، إن خدم النيران كلهن من النسوة، وحاسرات الرؤوس أيضا، كانت شعورهن منسدلة عبر ظهورهن كسادنات معبد، لم يخضع شعرهن لتسريحة القذال التي بدا عليها شعر الأميرة أثناء لحظات التطهر، وهو ما يعني أن هاته التسريحة المميزة قصر على حرائر الوادي، آهٍ، لكم كنت ستكتشف الأمر لولا أن اللائي قابلتهن من النساء لم يكن عاريات الرؤوس بمن فيهن الأميرة ووصيفتاها تارا وتارو.
رحب الورع بمقدمك قبل أن يشير عليك بالدنو من موقد حجري قد اختفى شكله وسط أدخنة قسطلانية الألوان وقال لك:
- استنشق من هذه الأدخنة ملء نفس طويل لسبع مرات، ولك أن تستريح إثر كل واحدة منها.

وأضاف الورع لول وهو ينظر إلى قفاك حين اقتربت من الموقد:
- إذا انتهيت من طهر الشهيق لا تتحرك قبل أن توافيك سادنة الكهف بقنينة من ماء الشلال لتأخذ منه جرعة، ثم لتبلل وجهك بالباقي ثم أحسن وداع الموقد لأنه أقدس مواقد الكهف.
- وكيف لي أن أحسن وداعه يا سيدي؟
- أن تستدير في هدوء ثم تنصرف بهدوء أيضا.

وقد اقتضت حكمة ما من الورع لول والعرّاف أن يتجاهلا موجة العطس التي انتابتك لمجرد اقترابك من موقد الأدخنة، فانشغلت بنكف الدموع التي بللت عينيك نتيجة لذلك.
كانت خادمات بقية المواقد ينظرن إليك في اهتمام لا يخلومن غرابة، أما الحديث بين العرّاف والورع فقد دخل طور الإشارة المتبادلة منذ أن أقبلت على الموقد وأنهى الورع وصاياه إليك وكأن عملية شم الأدخنة هذه لا تتم بدورها بمعزل عن مفهوم الطقس، أو في غفلة من الاعتقاد بأرواح تسكن الموقد كما ظننت، فور أن أديت طهر الشهيق على أكمل ما أوصى به الورع لول قال لك منشرحا:

- اِسمع إلى ما بخارج الكهف، هل سمعت؟
- لكأنه صوت ناي فعلا إنها أنغام تعلو خرير الشلال.
- وإذن فقد بارك النغم شهيقك.
- وماذا يعني ذلك يا سيدي؟

واحمرّت عينا الورع بصورة لم يُتح لك مرآهما عليها من قبل، وقال بصوت صارم:

- النغم إشارة قبول يا ولدي.

قالها ثم راح يتمتم بدوره، النبات أصل الناي، أصل النغم، أصل البخور، أصل الثمر وأصل الدخان، إذن فأيهما أصل المكان؟ الحجارة أم النبات؟ النبات قد يصير حجارة والحجارة قد تحبل بالنبات.
كل هذه التمتمة فهمتها عن الورع لول، لقد كان واضحا أكثر منه أثناء لحظة التطهر عند الشلال.
نظرة الورع لول بدت لك إحيائية وقد أعادت إليك موقع الحجارة في نفس العرّاف أخمار، قد تُبجّل الحجارة لأنها قوام العصر وكتابه أما النبات أيُبجّل

لمجرد أنه يعطي النغم والدخان؟ ولكن كيف توافق انتهاء طهر الشهيق مع انطلاق أنغام الناي خارج الكهف؟ أهي أنغام من غير عازف؟ وإن كان لها عازف فكيف أدرك أنك أنهيت طقس الشهيق وهو خارج الكهف، بل وبعيدا منه؟ وأجهضتْ إحدى محظيات الكهف تفكيرك وقد أقبلت من داخل دهاليزه السفلى وبيدها طبق من فطر وكمء فناولتك إياه مبتسمة وقد ناب عنها الورع لول قائلا:

- تفضل هو بعض طعامي المفضّل.

شكرت له طيبته مع أنك استغربت وقوف المحظية قريبا منك إلى غاية أن فرغت من الأكل وسلمتها الصحن الذي بدت رسومه شبه مندثرة وقد تضمنت ما اعتقدت أنه مشهد ثيران في حلبة مصارعة.

لقد أحزنك أن تحول كثافة الدخان دون تثبتك من وجود نقوش تكون قد ازدانت بها أثداء الحجارة في هذا الكهف، كهف الورع لول.

فالغالب على ظنك أن الوادي لا يتسع لكهف قد خلا من النقوش، وتمنيت من العرّاف أخمار، وقد تناول عصاه، أن يطيل المقام إلى غاية انكشاف الأدخنة، لكنه اعتدل واقفا قبل أن يشير عليك بمصاحبته، وشيعتكما إحدى سادنات الكهف في أدب نيابة عن الورع لول.

انعقدت الظلمة على واجهة الشلال فأخفت لجيني مياهه الجاهرة بانسيابها، النيران السبع تراجعت أنوارها أمام حلكة الليل، فبدل من أن تشرئب بألسنتها إلى السماء، ها هي ذي تعاود الانتساب إلى الأرض التي انطلقت منها كصواريخ فاشلة الدفع.

إنها ازدواجية النبات والجماد التي لا تفتأ تصنع ليل الوادي: الحطب والحجارة، الحطب لمناهضة الظلمة والحجارة لترسيخ الفعل والحركة.

لم يتجه العرّاف إلى كهفه كما اعتقدت بل اتجه شرقا، كان الظلام قد أحاله شبحا لا يختلف عن صخور الوادي وأحجاره إلا بالحركة، وكعادتك دنوت منه مستفهما وقد تفطنت فجأة:

- سيدي، لعلك لست في طريقك إلى الركام القصي؟ مقام الثعبان.

وأسمعك ضحكه كما لو أنه يطمئنك، ثم ما لبث أن قال:

- سنزور المبجّلة مهندسة الفخّار.

وأخفى الظلام تقطيبة رسمها جبينك سرعان ما محوتها خوفا من أن يكتشفها حدسه، وولجتما سردابا في منتهى الامتداد والالتواء عار من الحراسة والجواري، على هدى من انعكاس نار اتضح لك أنها تنير من أعماق إحدى الانفاق السحيقة.

كان العرّاف منسابا مع مسارب الكهف بخفة تساعده معرفته بتضاريسه الداخلية، وتلقائيا انعكست خفته على سرعتك خوفا من أن تفتقده ضمن هاته الدوامة فلا تسطيع تقدما ولا تراجعا إلى أن أخذ ت ألسنة النار من الثبات ما يسمح بمكاشفة خبايا المكان.

واستقبلت الكهف بسؤالك:"كيف يتاح لساكنيه التنفس؟" هو ذا السؤال المركزي الذي يرتسم بخلد زائره، وعكس ما خُيل إليك لم تكن مهندسة الفخار في استقبالكما إنه رجل سبق له أن تناول معكما طعام العشاء بميدان النيران، إنه، إنه أحد الثلاثة ممن أعياك افتكاك هويتهم.

فما الذي جاء به في مثل هذ الوقت؟ ونحوك أرسل بابتسامة غامضة نتيجة سوء الإنارة، ورحب بك كمن كان يتوقع زيارتك، ثم استأذن في الدخول فتساءلت ساخرا أبعد كل هذا الدخول دخول؟ وانتظرت كلام العرّاف أخمار الذي لم تتلقه وقلت كمن يزيل غشاوة:

- سيدي ماذا يصنع هذا الرجل هنا؟

- إنه مساعد الخطاط تورغال وهو زوج المبجلة مهندسة الفخار.

وقلت في نفسك: ويوجد زواج أيضا في شرائع الوادي؟
ثم برزت امرأة مكتنزة لا يستقر على محياها جمال فحيتك، وما أن ظننت أنها ربما تكون مهندسة الفخار حتى ابتدرها الشيخ أخمار:
- أهلا بوصيفة المعلّمة.

وصيفة؟! لاتزال في طور مقدمات الاستقبال إذن؟ أحد الثلاثة، ثم الوصيفة، ثم من ياترى؟ ولم يأخذك الاحتمال بعيدا فقد ظهرت سيدة خلفها طفل في حوالي السادسة من عمره، وقد ارتدى صدارا من فرو حيوان وشق يميل إلى الاصفرار على زركشته.
أكيد أنها هي، المهندسة بشعرها الخاضع إلى تسريحة انكفاء إلى الخلف كراقصات ميدان المواقد، ومعطفها الجلدي المنسدل، إنها ترتدي جلد ثور بكامله وقد ائتزرت بأظلافه على فخامتها، لم تكن هذه الصيحة من اللباس بمجهولة في عالم ما تعرف، فلقد اكتُشف شبيه بها بمنطقة "طرف النخيلة" وبدلا منك تقدمتْ من العرّاف أخمارقائلة:
- عمت مساء يا صاحب التجلة.
- عمت مساء يا سيدة فخار الوادي.
- وأنت يا زائر الوادي.

وانحنيت برأسك نحوها فدنت منك، ومن دلالها وطريقة تخثّر عينيها أثناء الحديث اكتشفت عمق علاقتها بالفن، إنها لو لم تكن فنانة لكانت في غنجها أقرب إلى عالم الغواني، حدثتك عن صراعها مع أطوار الفخار الشبيهة بمراحل نمو الجنين، وعن أمانة تحويل المرئي كمتحرك ضمن فسيح أرجائه إلى مقروء فخاري قد أخذ صفة الفعل من دلالته على زمن مـــا، ثم نصحت بما يشبه الحكمة: "إن ما يبقى هو فقط ما تحمله متون الفخار

والحجارة، فخارجهما لا يمتلك الشيء إلا صفة العابر الزائل" وجالستك بحيث أخذت مكانا قريبا منك بينما فضل العرّاف البقاء واقفا إيحاء منه بضيق وقته الذي قد لا يتسع إلى جلوس، ومن داخل الكهف حملت إحدى وصائفها مشروبا قاني اللون، قالت إنه نقيع شقائق النعمان ومن غير تحلية شربته وهي تقودك إلى أحد الانفاق العلوية يمثّل معملا لصناعة الفخار، وفعلا لقد تناثرت بحناياه أوان وأباريق وقوالب حجرية هرمية الشكل لولا أنها دائرية، ومكاشط دقيقة قريبة من أحجام السمك.

ورغم ظاهر تباين قد توحي به أبعاد الرسوم الفخارية، فإنها لا تستعصي عن الانتماء إلى قاعدة فنية جامعة هي مدرسة النقل المباشر الذي لا يضيف إلى الصورة إلا ثباتا بدل الحركة كما سبق أن قالت المهندسة، وسواء أكانت تعني به ما تسميه أنت بالمحاكاة الأولى التي لم يتسن لها أن تردد مصطلحها بطبيعة الحال أو غيره، فقد شرحت لك ـ بما فيه الكفاية ـ أن اقتباس المشهد ـــ كما تفهمه هي ـــ يتجاوز مجرد نقله لأن الغاية القصوى من النقل هي تجميده، والتجميد ـ حتى خارج الرمز ـ هو سلب للحركة، أو شل لحالة الفرار والعدْو، أما ما بين الرسم والإحالة على الطبيعة من ارتباط جدلي، فأمر ينبغي الاقتناع به على علاته.

بك طوّفت عبر أرجاء معمل الفخار وولدها إلى جانبها، وقد أهدتك آنية رائعة الزخرفة قبل أن تعودا إلى حيث تركتما العرّاف وزوج المهندسة إلى جانب الوصيفة، ومن هناك غادر العرّاف الكهف مشيرا عليك بمرافقته، وحين خرجتما قلت له كما لو أنك تستعرض فطنتك:

- أعرف أننا سنزور كهف الأسلحة أيضا.

وحملق فيك بنظرة حملت شكا لم يبلغك بسبب شدة الظلام وقال:

- بل سنعود إلى كهفي لأن إطلاع زائر غريب على معمل الأسلحة لا تقره نواميس الوادي.

وأكملت في سرك: "ولا نواميس قرطاجة بعده، إنه كمينائها الدائري الذي ظل سريا حتى لحظة احتلالها من طرف الرومان" ثم قلت:

- ومدابغ الجلود هل هي بدورها سرية؟

وتجاهل سخريتك وواصل سيره وكأن شدة الظلام لا تحد من خطاه،
رفض الليل أن يعلن عن قرب رحيله فبات ماسكا بأديم المنبسط والتلال من حولك على حد سواء، وخيم بإحكام على أغوار الوادي متناهيا إلى قمم السفوح، وسد منافذ الكهوف الآهلة، أما مواقد ميدان النيران فإنها لما تخبُ بعد وإن بدت كأجسام نورانية سابحة في الظلام والليل قد اتسع لها كما اتسع لماء الشلال وأناشيده ولحركة بعض من يستجلون حقيقة الوادي ممن استغرقتهم خلوات طقس ما.
سائريْن كنتما وقد انفردت بمناجاة الليل الذي اشتكى الشعراء وطأته وكتم على أنفاسهم بثقله، هوذاته الليل الذي يعانقه الوادي لايزال مزموم الشفتين، في صمت عاشقيْن أتيحت لهما فرصة لقاء محظور.
استعاد العرّاف مجلسه، وتزويت أنت إلى جانبه ممسكا بالآنية الفخارية المهداة إليك من المهندسة، وواصل زايطا إذكاء الجمرات بحيث يشع نور خافت من بعض جوانبها، كل ما تخشاه أن يستأنف الشيخ أخمار ثقيل نومه، وهو ما قد حصل منذ هنيهة تقضت، وأمام انبهارك رسمت يد زيطا تحذيرا أخر بوجوب السكينة وفي امتعاض جللك الصمت.
مر زمن والعرّاف لايزال يغط في نومه، ثم فجأة حرك سبابته وكأنه يحتضر فأسرع إليه الخادم بإناء فخاري من ماء الشلال، فتناول منه جرعتين كانتا إيذانا بانفتاح عينيه على إثر إجهاد وبقايا ذعر، ثم ابتسم كما

لو أنه يهنّئ نفسه بوجودك، وأسرتك دعوته بإحضار "ڤدو" و "را" اللذين حيّياك تحية من سبق لهما معرفته، بل ناداك بزائر الوادي وهما يأخذان مكانين متقاربين للجلوس.

الفضاء الثـانــي

الفصل الثامن
اسفيديـــا

رائحة الليل لا تتوقف عند عتبات الكهف الأمامية، بل تتسرب إلى مداخله لتعقد مناوشات غير علنية مع أنوار الموقد التي أخذت كل وقت زايطا،

إنها لعبة أبدية، لعبة النور والظلمة، بحيث لا يوجد أحدهما إلا على حساب الأخر، لعبة لا تتسع للتعايش والمهادنة تماما كلعبة الحق والباطل في نظرك.

لم يمهد العرّاف لحديثه الذي سيطول، بل سرعان ما امتطى متنه شبه نائم ليذكي سؤالك القديم:

ـ هل هو يتحدث نائما أم بين يقظة ومنام؟؟

ولكم كان عليك أن تعزي نفسك، إن ما يعنيك منه هوما سيقوله، أما حالته فربما كان معتادا عليها وهي لا تثير إلا غرابتك لوحدك كوافد على الوادي، بل إن حديثه ربما اقتضى منه هذا التناوم أو التظاهر به على الأقل.

إلى هنا وفد من داخل الكهف جمع من نسوة كما لو أنهن سرب حمام غادر مربضه للتو وقد برزن من أعماق الكهف عبر ردهة لسانية الشكل شبه مظلمة لم تقو نيران زايطا على إضاءة منحنياتها، وقد تحلقن في شديد عناية بسيدة ممشوقة القوام، فارعة، ذات جمال لافت، غير أن ملامحها تكاد تعلن صارخ تفرد عن بنات وادي تيفريت، إلى أن خُيل إليك أنها ربما كانت دخيلة على عوالمه.

- لعلها زوج العرّاف أخمار؟ أو محظيته؟ بل ربما سبيته؟ أسيرته؟ أم هي أميرة كهف العرّافة؟

لولا تأكدك من شقرة الأميرة تهار وفصيلة وسامتها لظننتها هي، وكفيت نفسك كل هذا السيل من الأسئلة التي تغمرك بشأنها، ولكن تهار ليست بالفارعة إلى هذا الحد، ولا تصطبغ قسماتها بصبغة حنطية كهذه.

وهربا من أسئلتك التي تنهشك من الداخل، أبرقت بنظرة صامتة نحو "قدو" ورغم أنك ضمّنتها كل حيرتك لم يزد على أن ابتسم، كانت المرأة اللغز شبه سافرة، وأخذا بعادة ما قد امتد شعرها إلى أسفل منكبيها في

طلاقة لم تلحظ مثيلا لها إلا عند راقصات ميدان النيران، أو لدى مهندسة جناح الفخار قبل حين.
وإن ظلت نظراتها الجاذبة تحتفظ بتأمل على درجة عالية من الوقار الذي لا يكون إلا أميريا، ومع ذلك يثقل عينيها ما يُعتقد أنه مسحة من حزن أضفى على الصمت الذي يجللها هيبة لا تبدو مكتسبة، أما الفراء الذي ترتديه فقد أنتهى إلى جيدها مطعّما بريش طاووس بدا في تقاطعه كأوسمة فخرية، وإلى قريب من مجلس العرّاف شيعها النسوة كعروس قبل أن يأخذن أماكنهن بمحاذاة زايطا وموقده، ولف المكان رصاصي صمت فور أن شرع العرّاف أخمار في الحديث فقال:
"أومأ الملك "تيم" إلى جلاسه بالانصراف محتفظا بابنه، وولي عهده الأمير أطلس الذي دوّخ معاقل الممالك المجاورة، ثم قال له: "علينا أن نفكر جنوبا" وقام الأمير الشاب حتى لا يحادث أباه الملك جالسا وقال:" هل يعني مولاي إمارة النخيل "تيوت"؟[محطة آثار بجبال القصور] أم مصانع الحجر المُشظّى لدى عبدة افريش؟"
وقلت في نفسك: إنه يتحدث عن زمان افريش إذن زمن الكبش ومواطن عبادته معروفة بحواضر بلـــدة "بوعلام"[شرقي البيّض] وما حولها.
وقام الملك تيم وقد ركبه سهوم تفكير جدّي وقال لابنه:" ربما حاولنا اكتساح جوارنا قبل ذلك يا ولدي"
"تعني إمارة "أزقّى"؟
ولم يفُتك أن "أزقّى" هي التي أسماها اللسان الأوربي الدخيل بـــ " أوزكي"
وقال الملك لابنه: "هي إمارة في متناولنا أو تكاد كما تعلم"

وحذق الأمير ما قصد إليه أبوه:"لتكون توطئة إلى ما خلفها أعني تيفريت؟"
ورفع الملك يده باتجاه السماء طربا لفطنة ابنه:"تيفريت وما بعدها"
واغتصب ريقه:"تيغنيفين أيضا"
وابتسمت لنطقهم كلمة تيغنيف عكس الملك تيم الذي كان قد ابتسم اطمئنانا إلى ذكاء الأمير الذي قال:"ولكن محاولاتنا في هذه الأنحاء كلها فشلت يا مولاي؟"
انصرف الملك تيم صوب ورشة الرسم على الحجر فتبعه ولده الأمير، كان خطاطُ تيمطلاس يقوم باستئناس الصخر على عادته، بحيث عكست رسوماته مكونات البيئة إلا أنها اقتصرت على نادر الحيوان، وحين تقدم من الملك لإلقاء التحية قال له هذا:
"السلاح جانب من مكونات القوة فلا تغفل رسمه"
كان الملك تيم ـ على ما يقول العرّاف أخمارـ قد امتد ملكه إلى مشارف أطلس تيوت وبلاد إفريش، وغربا إلى تخوم معامل السلاح خلف "تمالتة" أما شمالا، فقد لامس تخوم إمارة تيرسيف التي تسمونها أنتم اليوم بسعـيـدة.
ودون أن تتخذ من نفسك طرفا في الحديث علقت في سرك، إنه يعني الأطلس الصحراوي، ثم معامل "مغنية" وما خضع لمملكة سيفاقس بسيغا التي كان عليها أن تنتظر فجر التاريخ لتتأسس.
وغفا أخمار إغفاءة مطولة بعد أن صفق بيديه فانضاف إلى جمع النساء رجال ثلاثة عليهم جلود ثيران أو وحيد قرن أو فرس نهر من الألبسة التي علمت أنها مدنية، تصدّر أحدهم صف النساء بينما جلس الباقيان في منتهى طرفي الصف، والغريب أنهم كانوا يتحدثون فيما بينهم، وما أن التفت نحو "قدو" حتى قال لك:

- في إمكانك الآن أن تكلمني لقد أتيح الحديث بتصفيق العرّاف منذ حين بيده"

وأدنيت رأسك منه لتقول:
- من الثلاثة يا سيد "قدو"؟

وضحك معلقا:
- دائما يثيرغرابتك رجال ثلاثة، إنهم الرواة"
- ماذا سيروون؟
- ما شرع فيه العرّاف قبل مجيئهم.
- ومتى سيروون؟
- فور إفاقة عرّاف الوادي من غفوته.

"ألقى الأمير الشاب نظرة على ما حوله، الأفق تلبسه غيوم وافدة والطقس لا يستقر على حال، والخوف من اقتراب مواسم الجليد يدفع دائما إلى الاعتناء بتوسعة الكهوف كملاجئ يُطمأن إليها عند اشتداد الصقيع على مرتفعات تيمطلاس وفي الجوار.
وربما لذلك أخذت قطعان أبقار الوحش، والحمرالمضلعة الألوان فضلا عن الغزلان في الاختفاء بتدرج.
عراء تيمطلاس وفقرها إلى الآكام الصخرية جعلا الحاجة تقوم دائما إلى التطلع نحو كهوف تيفريت المتقنة الصامدة التي تشكل شبه مبان إسمنتية لا تطالها غضبة العواصف مهما بلغت درجة حدتها.
كان الأمير أطلس يحلم لمجتمعه الصغير بالاحتماء داخل هذه الكهوف، حيث دفء الخضرة وتدفق الماء، والأعذب من ذلك ـ وهو ما يشده شخصيا ـ الأميرة تهار، أميرة الكهف الأوسط التي أسالت مفاتنها هواجس الأمراء ورجالات الحرب.

حدّث الراوي الأول:" أن أطلس كان قائدا واسع الصيت لا يرتدي إلا جلد نمر هاجر الأدغال، ويحسن أكثر من فن قتالي في مهاجمة الخصم، بالنبل وأنواع الحجارة المشظاة، وبالرماح الخشبية ذات الرؤوس العظمية، وتعرف أسماع الجيوش زمجرته أثناء رهبة الالتحام.

زمجرته؟ تساءلت فزعا هل قال الراوي زمجرته؟ أليست الصرخة المخيفة إحدى زماجره التحذيرية؟ من يدري ربما أطلقها بين الحين والأخر لإخافة الوادي؟ وهل هي من القوة بحيث تُسمَع من هناك؟ من تيمطلاس عاصمة مملكته؟ لا تدري، لاتدري.

لم يصبح للحصان دور بعد في الحروب، فاستئناسه ظل بأعداد متواضعة لوجود سائس واحد لا غير بمملكة تيمطلاس، كما ولم تكن أعداد السكان غفيرة، مما جعل الجيش يبقى في طور فرق من المشاة يتحكم في تسليحها ما يتم تصنيعه من الحجارة والشجر والعظام وهو ما لا يسد طموح أطلس.

وفي تلك اللبؤة الضارية التي تحميها كهوف تيفريت، في الأميرة تهار يفكر الأمير الشاب ويفكر، ماذا لو اكتسح معاقلها على حين غرة من القائد تيرسين؟ قائد جيوشها؟ إن استغراقه في تأمل مفاتنها ليقتضي منه أوقاتا وأوقاتا، ففيم هذا الارتماء على الخيال وحده لامتلاك بهائها؟

في هاته الأثناء ظل "قدو" يتتبع درجة تركيزك، وزايطا يوزع أقداحا خشبية مترعة بسائل نباتي ما، وفوق لذته كان السائل منعشا، أما العرّاف أخمار فلا يشارك الراوي حديثه إلا من خلال سبابته التي تمتد أحيانا لتنثني بعد ذلك دليلا على أنه ليس في حالة نوم، وذكرك وضع الرواة الثلاثة بطلبة الكُتاب حين يستظهرون ما حفظوه عن ظهر قلب أمام معلمهم.

أوه، تيرسين ذلك الشرس الذي أطفأ تمرد قبائل الجيتول أثناء مواسم الانتجاع فاستقبلته الأميرة تهار بباقة من أشجار الوادي مبللة بماء الشلال المقدس، بل إن لترسين أسدا يؤازره في حروبه يوازي جهد أربعين رجلا،

وهولا يلبث أن يمتطي صهوة هذا الأسد للتفاخر خارج أيام الحروب، والأسد هو الذي حضر مأدبة العشاء بحيث كان يربض قريبا منك.

وإلى جانب أسد تيسرين، حدّثك "قـدو" عن ديناصور عجوز، كان أخر حيوان بهذا الحجم يموت أثناء سقوط نيزك " تلمزان" [بالأغواط]شرقي تيفريت، غير أن موته لم يمنعه من التحفز للعودة إلى الوادي كلما جد الجد، حتى إنه ترك وصية بهذا المعنى، وأعدت التساؤل عما إذا كانت وصية هذا الديناصور العجوز هي ما يتردد في شكل صيحة مخيفة كل يوم؟ وهل أن العرّاف لم يطلعك على هذا السر لأنك لما تقض بعد الفترة الزمانية المقدرة لذلك؟ ولذلك ظللت وحدك من يخيفه أمر الصيحة؟؟

وإلى جانب الديناصور كان هناك شيخ أحصنة الوادي الذي رفض تمدن فصيله إعلاء لحريته، وقال لمن حاول ترويضه، كما أخبرك أخمار نقلا عن أحد أجداده ممن حضروا ندوة الحصان: "لن نصير أدوات قتال، أليس هذا هو الهدف من ترويضنا في نهاية الأمر؟!"

والأقوى من ذلك كله أن بتيفريت يقيم ثعبان الركام القصي لايزال، أتراه سيعتزل الحرب إذا نشبت بين تيرسين وأطلس؟ سوف لن يفعل مادام أمره بيد الورع لول، ثم الأسد الجسور الرابض رهن إشارة من تيرسين، هل ستقوم حيوانات تيفريت بالحرب نيابة عن سكانها؟

كل أشياء تيفريت حتى الصغيرة منها تهم تفكير أطلس، بل حتى صغار السلاحف والضفادع السابحة بوادي الشلال، فضلا عن نسيم الآماسي الوافد من الشمال الذي ينعشه لأنه يمر حتما بمرابض تهار فاتنة الوادي العميق.

وإلى هنا استأذنت العرّاف في الكلام فأذن لك:" ألم يكن بوسع أطلس سوى السبي والاستيلاء؟! هذا تعجرف منه".

ولم يجبك رأسا بل كان عليك أن تنتظر الإجابة من سياق أسس له الراوي الذي فهمت منه أنه على الصورة تلك يستحيل أن يسلم الوادي سيدته الأولى طواعية وخارج نتائج القتال، وهو ما ينغص عيش أطلس الذي التقت رغبته مع طموح والده حين وضع تيفريت ضمن خطط هجومه الواسع.
وأطلس ـ قبل إفصاح أبيه عن خطته ـ كان أخشى ما يخشاه أن تباكر إمارة تيغنيف معاقل تيفريت بهجوم مباغت ذات صباح، فتيغنيف مهد نوع من الإنسان الأول[بالكاو] وصاحبة سبق في إنتاج الفؤوس الحجرية، أتاح لها الزمان ما مكّنها من تهيئة ظروف وتقنيات هجومية لم تتح لغيرها من الحواضر اللاحقة، ولعل الأفيد في هجوم كهذا لو حدث، أنه سيقوم سببا كافيا لنشوب صدام عنيف بينهما سوف لن تجد تيمطلاس نفسها خارجه.

- هل معنى هذا أن قواتنا ستدافع عن أميرة تيفريت ضد تيغنيف يا سمو الأمير؟

قال ضابط سلاح النبال "ريغ" ورد الأمير أطلس:" طبعا حتى لا يشكل سقوط تيفريت مقدمة لسقوط مملكتنا فما يحيق بجارك يحيق بك".
وأدرك ضابط النبال "ريغ" عمق ذكاء الأمير، حقا ليس حبه للأميرة هو وحده ما يدفعه إلى التصدي لتيغنيف بل هناك خطر أكبر ولكم هو في تخوفه محق.
ولكن لماذا ينطقون "تيمطلاس" بفتح التاء وإشباعها عكسنا؟ وما معناها بفتحهم هذا وضمنا نحن؟ وانتهزت فرصة انقطاع الراوي الأول عن الكلام ليتناول جرعة مقوية من جرة ماء الشلال وسألته غير أن العرّاف أخمار هو من سيتولى الجواب فيما يبدو، وربما لذلك اعتدل في جلسته، وفعلا قال لك: "أنتم تنطقونها بغير معنى، أمّا نحن فـ "تام"عندنا تعني الحاجب، وأطلس تدل على مرتفع إذن فهي: "تام أطلس" وقلت في حدود ما تعلم:"

بلغني أن أطلس من كلمة أطلنط التي هي اسم قبيلة قديمة" ورغم أن معجميات من هذا القبيل تزاحمت في خلدك مثل: أمطلاس، توطلاس، إلا أنك فضّلت الاستماع إلى حديث الرواة.

وعكس ما توقعت لم تكن استراحة الراوي الأول مؤقتة فقد أشار العرّاف بيده إلى راو ثان بدا على ضوء النار المنبعثة من زاوية زايطا أشيب، منهك القوة، نحيلا، مع احتفاظ عينيه بحدة فطنة، وقد ارتدى فروة حيوان وحشي مضلّعة الأطراف، قال وقال وقال ثم أنتهى إلى قول:" إن الوادي أثناء فيضانه الجليدي الأخير أنهك حشود القائد أطلس الذي واعد والده بإسقاط تيفريت في حدود ليلتين فقط، وفعلا حاصر الكهوف السبعة متجاهلا تحذيرات القائد تيرسين إلى أن تمكنت كمائن من فرق رماة الوادي من زعزعة ميمنته مما اضطرها إلى التراجع وقد ذُهل أطلس لتشظية الحجارة التي بلغها جيش تيفريت.

ففضلا عن الفأس الحجرية التي تجلت طلائع منها في هذه الحرب كعيينات أثبتت لأطلس مستوى التعاون العسكري بين تيفريت وتيغنيف، وقد فات أطلس أن ما ألحق الهزيمة بميمنته لم يكن سوى الرماح التيفريتية الصنع بنوعيها الحجري وذات المقدمة العظمية التي أفلحت في انهزام جحافل تيمطلاس أثناء الالتحام، بينما كان فيضان الجليد بالوادي قد شل تحرك بقية قواته مستلهما بركات الشلال كما أثبت الراوي.

القائد أطلس ابن الملك تيم سيد تلال تيمطلاس كان جريئا، في صباح ما أطاح بدفاع أزقّى «أوزكي» المجاورة له، واستولى على إمارتها المسالمة التي نمت بين قوتين ضاربتين، قوتي تيمطلاس وتيفريت، بل وبين قائدين طموحين أطلس وتيرسين.

الراوي الثاني حدّث عن يوم أغبر أحاق بالإمارة الصغيرة فاضطرها إلى إبداء ضروب من المقاومة أثار ت حفيظة أطلس العنيد الذي لم يكن ليدغدغ كبرياءه سوى انتظار تنفيذها فروض الطاعة، فأمهل وجوهها أربعا لافتدائها بأجمل حسانها الفاتنات: اسفيديا، وإلا ألحق بها من الدمار ما يُعرف عنه.

واسفيديا هي أفتن نساء الإمارة الصغيرة وما حولها، وأشرسهن في الحروب بشهادة كبير قواد جيوشها القائد أمرغاد.

واسفيديا أوصت أمرغاد دائما بالحذر تجاه نوايا أطلس، منذ أن رفضت مطالبه بإنشاء قوة مشتركة لمهاجمة الداني من الحواضر، كترسيف وتيفريت وتيغنيف ومناطق أخرى أخذت تعرف حركة استقرار مستجدة بعد انزياح الجليد.

واسفيديا استلهمت ذكاءها الحربي من والدتها الراحلة " أزقّى" وقد كانت لا تنام إلا نهارا اعتقادا منها أن الليل هو وحده ثغرة العدو كما قالت لابنتها.

في يومها هذا وقد ملأ مشاة أطلس ما يحيط بالإمارة من أحواض وتلال، انقسم جيش أزقّى إلى فرقتين، ترأست اسفيديا إحداهما وأسندت الأخرى إلى أمرغاد الذي يبدو أن الظروف هيئته لمثل هذا اليوم.

وأثنى الراوي الثاني على صمود اسفيديا بحيث لم تستسلم حتى ودفاع المحارب أمرغاد قد تضعضع أمام وثبات أطلس الجبار، وهالها أن يسقط أمرغاد جريحا إثر طعنة رمح حجري رفيع التقنية، ورغم أنه نُقل إلى المؤخرة حيث عيادة طبيب الأعشاب المتنقلة، واصلت اسفيديا قتالها لولا أن خمود جبهة أمرغاد سمح لأطلس بتعزيز الهجوم ضد الفرقة الأولى التي تقودها، وما هي سوى لحظات ــ يقول الراوي الثاني وقد كاد يبكي ــ حتى تعالى نحيب بنات إمارة أزقّى وقد بكين انهزام المرأة التي لم تنهزم من قبل: اسفيديا.

وفي نواحهن الجمعي عددنا وقائع سابق انتصاراتها، وتساءلن في مرير بكاء:

"اسفيديا كيف تُسبـــــى؟!"

"اسفيديا كيف تُهـــــزم؟!"

"اسفيديا كيف تُضـــــام؟!"

ولم يفتك أن المرأة الحنطية اللون قد أخذت تكفكف سواجمها بعد أن تبللت عيناها الجميلتان والراوي الثاني يردد تساؤل بنات أزقّى وقد شاطرهن مرارتهن.

وإلى هنا كان قد زار الكهف جاريتا الأميرة تهار: تارا وتارو فاستجمع العرّاف قواه كعسكري سابق مشيرا على ثاني الرواة بالتوقف، ومنك تقدمت الجارية الخضراء واضعة أمامك ما يشبه الصحن وبه بيض مسلوق أقل حجما من بيض الدجاج، ثم تراجعت إلى الخلف وهي تقول:"مولاتي تأذن لك رفقة العرّاف بزيارة الكهف الأوسط، كهفها مع إشراق الغد" وأكملت تارو من خلف زميلتها:"سيبلغك سيدي أخمار أنه لا ينبغي لك أن تتناول شيئا قبل الزيارة، بذا نطقت نواميس الوادي"

وفي خشوع هز العرّاف رأسه تصديقا لوصاتها بينما انصرفت عيناك نحو "قدو" على ذكر نواميس الوادي فابتسم في وجهك دون أن تفوتك بسمة أخرى ارتسمت على شفتي "زايطا" فهمت منها أنه يؤكد لك مدى اهتمام الأميرة بك كما كان قد أشار إلى ذلك من قبل، وفي رشاقة تحرّك جسم الوصيفة الخضراء راسما تحية انصراف ومثلها فعلت تارو، يا لها من زيارة حملها إليك جنح الليل أنستك ما خلفته في نفسك فاجعة اسفيديا، نفسك التي هنأتها بزيارة لم يُحظ بها حتى أطلس الذي دوخ مغارب الأطلس التلي.

ولإزالة ارتباكك أشار عليك العرّاف بتناول البيض المسلوق، وفهمت من كلامه أن الصوم الذي يسبق زيارة الكهف الأوسط إنما يُشرع فيه عادة مع انبلاج خيوط الفجر الأولى، وأشركت بعض من تطوع في أكل البيض، وبغتة توقفت وكأنما أصبت بمغص يا للمصيبة، لقد التهمت أكثر من واحدة منه قبل أن تسأل عن طبيعته، وكدت تتقيأ وقد مرّ بخلدك خاطر:" قد يكون بيض إحدى الزواحف؟ اللعنة، وما أن أدرك العرّاف حيرتك حتى ابتسم وهو يقول:

- اطمئن إنه خليط من بيض قطا وحجل.

وكما لو أن هامش المزاح قد تقضى استعاد أخمار جديته وهو يشير إلى الراوي الثالث باستئناف الخبر فدخل هذا طور استعداد وكأنما هو بصدد إلقاء خطبة دينية وقال:

- حدّثنا كبير رواة أزقّى وقد التجأ إلى وادينا بعد الواقعة أن:" هجوم أطلس كان من الشدة بحيث اقتلع عتاة الحراس من حول اسفيديا التي تراجعت بقامتها المديدة وهي تقدر الثقل الحربي الذي كان يعنيه وجود أمرغاد إلى جانبها، فترقرقت عيناها بالدموع إشفاقا على نفسها من وحشية أطلس لو يتمكن منها، فحفزها ذلك على مواصلة الحرب ولو بصورة شخصية، ستكون أخر من يُلقي السلاح سوف لن تتلقاه إلا بيدين مخضبتين بالدم وهي المشهود لها بالمهارة في القتال وبكل أنواع الأسلحة المتاحة.

وفعلا، لقد كانت من الشراسة بحيث لم يقوَ على مجابهتها بمفرده، إنها ــ حتى والهجوم على أشده ــ لم تُلق ببقية رماحها الحجرية وحرابها وما فضل بحوزتها من رؤوس مشظاة إلا بعد أن ألمها جرح لحق بذراعها من أثار طعنة من رمح ذي نصل عظمي.

وحز في نفس أطلس ألا يكون هو من وجه إليها الطعنة التي أفشلت قواها، ومع ذلك اقترب منها إلى أن ألقت بأخر الرماح في وجهه، ولم ينظر إليها كما توقعت وهي ملقاة على قارعة المعركة بل أشاح ببصره نحو السهل المترامي في وجوم حيث تراءت له أشجار المنعطف وقد احتفظت ببقايا جليد تخلّف عن موسم الانقشاع.

هل أحس أطلس بهزيمة ما تجاه روعة اسفيديا حتى وقد صارت في أحط لحظات انهزامها؟ هل انبهر لكثافة شعرها وقد تهدل إلى ما أسفل خوذتها الحربية ليوقنه أن ساعة الاستسلام الكلّي لما تحن بعد؟

لقد صارت كل زاوية في جسدها ترفض الخنوع إليه، بل وتحاربه بفائق روعتها، أطلس لم يهامس أقرب مساعديه بإحساس من هذا القبيل ولو أن نظراته كانت تعكس صدق افتتان، هل كان قد تمنّى لأميرة تيفريت هزيمة بهذا الحجم؟ أم تراه يشفق عليها من ما لحق باسفيديا؟

كل ما فهمته اسفيديا أنه حوّل نظره عنها وهي في حالة سقوط واستلقاء على الأرض حتى لا يمعن في تشفّيه، كذلك تقرأ أخلاق المحاربين كمحاربة نبيلة.

استمر أطلس في النظر إلى جهة غير التي توجد بها اسفيديا إلى أن قالت له بصوت غاضب وهي تحاول أن تتماسك للنهوض:

- لا تحلم باقتيادي حية.

صورتان صدرتا عن الراوي الثالث تناهتا بك إلى ماض قد أنتجه ماضي اسفيديا، صورة مرئية وصورة صوتية، أما الصورة البصرية الأولى، فاستعدت من خلالها مشهدا صخريا تحتضنه منطقة " قارة الخلوة" يعكس رسم امرأة أقامها الخطاط نموذجا لشموخ القامة الأنثوية وقوة البنية الجسمية وانسكاب الشَّعر إلى الخلف في خيلاء بدوية أكيدة.

وأما الصورة المنطوقة الثانية فقد تضمنتها كلمات اسفيديا، التي ستكررها زينوبيا ملكة "تدمر" أمام هازمها الامبراطور الروماني أورليان.
فعبثا حاولت كلتاهما أن تنتحر في لحظة انهزام إذ كل ما بقي بوسع اسفيديا أنها اشترطت اصطحاب خادمتها ومستودع سرها: "تاودا" وفي غير كبرياء هذه المرة هزّ أطلس رأسه بالموافقة وهو إلى هذه اللحظة لم يعرف من منهما المنهزم هو أم اسفيديا.
واسفيديا ـ كما يعرف أطلس ـ لم تكن أميرة بقدر ما كانت من ألمع بنات الطبقة الراقية في أزقّى، ممن يترفعن ـ بحكم مكانتهن الاجتماعية ـ عن الانتساب إلى موجات الشغل النسوي الجماعي، موجات جمع الحطب والتقاط الثمار والحشائش وصناعة الفخار ودباغة الجلود، لقد بلغت من المهارة بحيث كانت السباقة إلى امتطاء ما يتم استئناسه من أحصنة إمعانا في نجاح عملية الترويض.
قوية كانت اسفيديا، قبل اليوم هزمت أعتى محاربي الهجرات البشرية من جيتولي الجنوب وموري الغرب ونوميدي الشمال حتى، ممن سبق لدفء الطقس أن ساقهم في أعقاب مواسم الصقيع نحو مجاهل الهضاب العليا للاحتماء والقنص والالتقاط.
استعادت اسفيديا قامتها الصفصافية وإلى جانبها تاودا بسمرتها الخفيفة المحببة، وحارسان من قوات أطلس الذي لم يسمح إلا لأحد حراسها هو"مغر" بمرافقتها كتعبير عن حسن نية، وما أن خطت إلى الأمام متكئة على كتف تاودا حتى قالت لها:

- تأودا، لا تخافي كوني كعهدي بك متماسكة"

- وهزت تاودا رأسها دون أن تنطق لغبلة الحزن على ملامحها ومنطقها، وقالت اسفيديا لأطلس وقد أخذ جيشه يتحفز للعودة:

- لمَ تسُوق بنات أزقّى كلهن؟ الستُ وحدي بغيتك؟؟

الراوي الثالث حين أعاد عليك كلمة اسفيديا هاته لم يكن يدري أنها المقولة التي ستواجه بها الجازية الهلالية الشريف بن هاشم حين استولت قواته على هوادج أربعين هلالية وهولا يعلم في أي هذه الهوادج تقيم الجازية قالت له:

- أتريد الجازية لوحدها أم أنك ستسبي كل آثيرات بني هلال يا شريف؟

وردد الشريف بن هاشم جواب أطلس ذاته كما لو أنه بلغه:" بل الجازية وحدها، وحدها" وبخلدك تمازجت الأجوبة التي سبق للزمن أن رددها ولو عبر محطات متفاوتة:

اسفيديـا وحـــدها

زينوبيا وحـدها

الجازية وحـدها

وكما أكد ثالث الرواة فإن أطلس لم يكن لئيما مع أسيرته اسفيديا ولا حملها على ما تكره كما أضاف الراوي حرفيا، بل تحلى إزاءها بنبل المحاربين، وكاد يشركك الراوي في تساؤله هل ترفّع أطلس عن الإساءة إليها إشفاقا على تهار سيدة تيفريت وقد تخيلها في مقامها؟ أم أن هزيمتها على يد قواته أفرغت شحنة نقمته عليها؟ وهل فعلا كان ناقما؟

وحين انصرف بصرك نحو"را" الذي لايزال يمسك بقدح المشروب النباتي، حيّا نظراتك نحوه بابتسامة خفيفة تأكيدا لسابق معرفة، وبدورك أعجبت بالمشروب لرائحة الشمار التي تطبع مذاقه، وتحت هذا الاستحسان ما أن تناولت جرعة أخرى منه حتى حييت زايطا بإشارة من يدك إعجابا بجودة المشروب الذي كان هو من هيئه، فتقبلها باعتزاز كشهادة ذواقة أجنبي عن جلسات الكهف.

أما النسوة من حولك، فلازال نوع من الكلفة يخيم على نظراتهن نحوك، بينما سمحت لك أحاديث الرواة بإشاعة مستوى من الألفة معهم، ولأمر ما أفردت المرأة الحنطية ذات الملامح الدخيلة بنظرات مركزة عكسهن، ربما لأن أمرها لايزال يشغلك سيما وأن الجارية الخضراء تارا، كانت كلما دخلت الكهف أو همت بالانصراف منه إلا وخصتها بانحناءة مقرونة بكلمة:" سيدتي، سيدتي" عكس معاملتها للأخريات.
كان صدارها الجلدي مكشوفا عند الصدر مما أظهر بعض أبرز مفاتنها، ولم يتورع العرّاف أخمار من تمرير رؤوس أصابعه على مقدم نحرها العاري بين لحظة وأخرى، يحدث هذا كلما اقتربتْ منه بوجهها لحكمة لاتزال تجهلها أنت، ودون أن يحدث ذلك أي إخلال بنظام الحلقة لدى سُمّار الكهف عكس ما توقعت.
بل إن كل راوٍ بات لا يتحفظ من ملامسة صدر الجارية القريبة منه كما لو أنه يستوحيها قصصه، فكان عليك أن تغفل النظر وتحسن السماع، فهل يتعلق الأمر بطقس تعبُّدي يرسل إشارة ما إلى مقام الصدر من الإنسان؟ أم أنه ملاطفات جنسية لا تحتمل تأويلا أخر؟!
"قبل أن ينهي أطلس مراسم انصراف اسفيديا إلى حيث أراد لها أن تمكث ـ كما أفاد الراوي ـ كان شاغله الأوحد هو مصير أدموت نائب القائد أمرغاد، ذلك الثعلب الماكر أين اختفى؟ وكيف اعتزل القتال وهو أحد المدافعين الأشداء عن أزقّى، وعن عنوان مجدها اسفيديا؟؟
أمرغاد سقط جريحا وكذلك اسفيديا ومعظم قادة أفواجها المحاربة، لكن أدموت ما قصة اختفائه؟ إنه حتى لا يوجد ضمن القتلى أو الأسرى وما هو بالذي يُقتل أو يؤسر دون أن يكون لذلك دوي في قلب المعركة، ومضطرا في هذه المرة اعتزل أطلس كبرياءه وهو يقترب من اسفيديا:" أمرغاد

أصيب حقا ولكن نائبه أدموت لا يجب أن يظل حيا أو غير مصاب أليس كذلك؟"

وتلقائيا وارت بسمة كادت تطل من شفتيها:" وأين كانت عيونك حينما رحل أدموت إلى بلاد "افريش"؟ ألم تتبلّغ بخبره؟ وتضاحك أطلس مصدقا:" رحل لجلب الأحصنة المستأنسة بغاية إنشاء كتيبة من الفرسان وتوريد مزيد من الوجهينيات التي اشتهرت بها منطقة الكبش هههههههههه" انفجر ضاحكا في سخرية ليتمتم قبل أن ينصرف نحو جواده: " لقد فات أوان الحيطة سقطت أزقّى" ثم اختتم تعليقه مرددا:" يا لغباوتكم يا أهل أزقّى".

وفي سرها علقت اسفيديا:" سنعرف من الغبي، سنعرف"

الفصل التاسع:
بئـــر "ســـيرس"

حدد أطلس إقامة اسفيديا بمعسكر له كان أنشأه بمنبسط قد أحاطت به التلال السفلى لمملكته التي غالبا ما اخترقها أحد طرق العالم القديم كطريق هجرة ونزوح يمتد عبر موماة قاحلة ليوصل تيمطلاس بواحة "تيوت" الملقاة بين أسنان جبال الأطلس الصحراوي جنوبا، أو ينزاح شرقا نحو بلاد الكبش الذي يسميه رواة الكهف بأفريش، كما ينفتح شمالا على مدينة "تيرسيف" مدينتك المعروفة الآن باسم "ســـعـــيـــدة"

ولبساطة التضاريس واقتصارها على منخفض التلال استعاظ المعسكر عن انعدام الكهوف بإقامة حظائر من خشب وحجارة ولبن ولو تفاضلت مخادعها تبعا لمستوى من يقيمون بها، وكاعتراف سري منها أعجبت اسفيديا بالهندسة الخاصة التي خضع لها مخدعها بوسط المخيم بحيث جاءت جدرانه مبطّنة بالجلد والفراء اللذين جللا أرضيته أيضا فكان عبارة عن مخدع عروس، ولما دخلته لأول مرة أدركت اسفيديا أن أطلس كابن ملك لا ينزل الناس إلا منازلها.

تماثلت اسفيديا للإفاقة من صدمة الحداد الذي شمل إمارة أزقّى، وكتعزية أخذ يجتلبها مناخ البدايات الطقسية وما يتخللها من ترانيم جماعية ورقص وأناشيد سحرية ودينية فضلا عن خلوات الاعتكاف والتجلّي.

لم يكن المخيم مقتصرا على العسكريين كما اعتقدتْ في أول الأمر بل إن العسكري في نظام تيمطلاس، كما في تيفريت وأزقّى وتيرسيف، لا يحمل هذه الصفة إلا في لحظات الحرب أو ما تسميه أنتَ بمقتضيات الشأن العام الملحّة، ولذلك وجدت اسفيديا إلى جانبها في هذه الطقوس نساء وأطفالا فضلا عن الرجال، ولأن وجودها بمعسكر أطلس صادف ميقات طقس سنوي تقيمه مملكة "تيمطلاس" لأيام لم تتأخر اسفيديا عن ترديد أناشيد حماسية ابتهالية سرعان ما أحست بنوع من الذوبان في أصدائها.

وبحكم التعوّد على مكوّنات المكان لم تعد حسناء أزقّى تعير بضعة فرسان يمتطون صهوات جياد قريبة عهد بالاستئناس أي اهتمام ولو أنهم اصطفّوا على حافة الراقصين في توثبات متقاطعة تثير الخوف أحيانا من هذا الكائن الذي لم يألفه الإنسان إلا مؤخرا.

وإلى هنا تذكرتَ مقولة جواد تيفريت الذي رفض الترويض لكيلا يصير أداة حرب وعلّقتَ:" إنه داعية سلام في وقت مبكر، ليت كل الجياد قالت بهذا فحدّت، على الأقل، من مسافات الهجوم والاعتداء"

ومنك اختطف الراوي الأول خواطرك وقد أشار إليه العرّاف أخمار بالكلام، الحصان قوة أخرى عزّز بها أطلس جيوشه التي يفكر في الانقضاض بها على موطن ما بلا ريب بعد أزقّى، قد يكون تيفريت أو تاودموت أو تيرسيف أو تيغنيف حتى، ولو أن حركة التصنيع الحربي في هاته الأخيرة قد تثني أطماعه، فهي ـ حسبما بلغ اسفيديا ـ قد طوّرت قنابل حجرية من ذات الوجهين، وعززت صمودها بالفؤوس الحجرية والحراب، أما تيفريت فلا قوة لها خارج لياقة القائد تيرسين وأسده الجسور وموسم الجليد وشدة الفيضان ومستورد محدود من أسلحة تيغنيف.

وزار أطلس معسكر اسفيديا فابتدرته بقولها:"ولكن لماذا تحتفظون بي وما بقي من قوتي شيء تخشونه؟" قال شبه متهكم:

"رأفة بجمالك الذي ليس هناك من يصونه غيرنا ولا أعرف لك من ملاذ"

وظن أن كلماته قد أنكأت جراحها غير أنها لم تزد على أن انصرفت عن محادثته نحو محفل الرقص المتهادي في خشوع، ومن بعيد التفتت نحوه قائلة:

- حسبي أنك تعرف من تكون اسفيديا.

هذه المرأة ما الذي يقف وراء رباطة جأشها؟ وراء صمودها؟ وراء متناهي كبريائها؟ وراء؟ وراء؟! لم يكن أطلس هو من تساءل بل أنتَ ولو أنه بدوره قد طرح التساؤل ذاته حسب اعتقاد ك، أما الراوي الأول فقد نأى بنفسه عن هذا النمط من الاستفهام ربما لأنه ينفرد بإدراك ما يقف خلف شجاعة اسفيديا التي عادت إلى حلقة الرقص الديني المنتظمة على العراء وقد أمسكت بيدي تاودا في ثنائية مبكرة، غير أنها لم تكشف شعرها على غرار بقية النساء اللائي أخذت تاودا تقلدهن في ترنحات ميل الشعر وقد

امتدت جدائل شعرها الفاحم السواد إلى ما أسفل منكبيها فمنحها ذلك بُعدا آسيويا.
واستعدتَ مشاهد حلقات الرقص في ميدان النيران حينما وطئت قدماك أديم الوادي لأول مرة، كان رقصا يقوم على حركات الأيدي في تمايل أفقي ثم عمودي وأخيرا مقوس إلى الأمام، أما الأرجل فلا تتحرك إلا استجابة لإيماءة خفيفة من قائد هذه الحلقة أو تلك.
وفي لحظة ما تتمايل رؤوس النساء بشعورهن المنسدلة نحو الأمام في حركات تشتد إلى أن تصير شبه جنونية لتذكرك برقصات الشعر في المغرب وبعض جهات الخليج العربي، وكعادتك كدت تسأل نفسك: هل تستمر مشاهد الوادي هاته في بعض راهن رقصنا؟ وأي الجهات تكون قد استلفتها من الأخرى؟ المشرق أم المغرب؟
بل إن حلقات الرجال، رغم استطالة شعر بعضهم، قد تميزت بسيوف مشهّرة لم تتبين مادتها وقد ارتدوا أقنعة من جلود جديان، وهي رقصات ذات طابع حربي لا تعدم مثيلا لها في زمانك هذا عند التوارق مثلا.
وعيناها مشدودتان إلى فرسان شبه مصطفين على حوافي الميدان توانت اسفيديا عن الرقص إلى أن تنبهت تاودا إلى ارتخاء أصابع سيدتها عن المشاركة في تلويحة أمامية رسمتها أيادي بقية الراقصات في شكل جمعي فتوقفت الجارية بدورها مجاملة لسيدتها ثم دنت منها:

- سيدتي؟!

وبما يشبه الامتعاض قالت اسفيديا وعيناها تنصرفان إلى جهة الأحصنة:

- أنظري إلى هذا الجواد الأشقر الفاتح الذي يقارع الحصى بحوافره ألا يذكرك بسابقة ما؟

واندفعت تاودا إلى القول وهي تكاد تجهش بالبكاء:

- كيف فاتني أمره؟ إنه جواد القائد أمرغاد يمتطيه أحد حراس أطلس، يمتطيه فارس مغمور، يا للمعرة.

وهزت اسفيديا رأسها بتثاقل متعمد، أحيانا يخيل إلى تاودا أن حزن اسفيديا ليس من العمق بحيث يوازي مرارة الهزيمة، سقوط إمارة أزقّى بكاملها هل نسيت اسفيديا؟ أم تناست؟ أم تراها لا تتأثر أكثر من ما أظهرت؟

في لحظات الرقص هاته أخذ حراس الحامية يطلقون إشارات يفهم منها أن خطرا ما أصبح داهما وبالفعل لقد تراءت إلى غربي المخيم مجموعة من الأشخاص وهم يحملون شبه أكياس على ظهورهم.

وفور محاصرتهم واستنطاقهم اتضح أنهم مجرد تجار مقايضة متجولين قدموا من ضواحي بلاد " تمالتة " وبضاعتهم عبارة عن مقادّ وسواطير وفراء وصوان وجلود حيوان وفؤوس حجرية، وأشياء أخرى لم تحتفظ بها ذاكرة تاودا حين أبلغت سيدتها بالخبر.

وعند أصناف الحجارة المشظاة توقف قائد الحامية وبعض خبراء السلاح مطولا وقد فوجئوا:

- ومن ذوات الرؤوس المثلثة؟
- ولكنها ليست بمحظورة عندنا فنحن نمتلك منجم صناعتها؟
- عندكم؟ ربما.

وقال خبير أسلحة:

- أما هنا فالأمر يختلف.
- وماذا سنصنع بها الآن يا سيدي؟
- سنرى.

واستعادت اسفيديا كلام أطلس عن تفوق تيفريت في مجال التشظية كأحد أسباب تراجعه، أما أنت فأدركت أن مصدر هذه الأسلحة إنما هو منجم "المويلح" القريب من "أوزيدان" بضواحي «مغنية» أحد ملاجئ الإنسان القديم فهما ما يقع قرب تمالتة كما أفاد تاجر المقايضة في اعترافه.

وركب اسفيديا مستجد حنق وهي تعلق في نفسها:" هل كان على هؤلاء التعساء أن يمكّنوا أطلس من سلاح متطور التشظية أيضا؟"

ورغم أنه لم يتبلّغ بتعليق اسفيديا امتقع لون كبير التجار وهو يلاطف قائد الحامية بكلمات حمّلها أقصى ما وسعه من التضرع، وبالقرب من المرأتين عاود سرب قطا طيرانه وكان قد استقر بالجوار منذ حين فاستفز الجواد الأشقر الذي انتصبت أذناه في ترقب قبل أن يرفع من درجة صهيله استئناسا بحضور اسفيديا، ولعله لم يغفل أمر تاودا التي تجاوبت معه من خلال شهقة موجعة تفطنت لها اسفيديا وحدها.

وعلى الملمح الغربي حملت السحب بدورها تخوفا ما وقد تداعت مثقلة بمجهول وكأنها تفتتح أمسيتها بجولة أخرى من الأجواء الماطرة التي صار يخشاها الجميع، وإن لم تكن ماطرة فهل تراها مقدمات موسم جليدي عاصف كالذي تقضّى؟

اسفيديا ذاتها لا تدري، بالأمس على أيام أزقّى كان عرّاف الأنواء لا تكتمه السماء ما يجول بأحشائها وهو قد مات جراء طاعون عابر، ومن أيامها لم تفض السماء بأسرارها لأحد بمنتهى تلك الصراحة في حدود علم اسفيديا على الأقل.

ومن كل ذلك لا شيء تخشاه اسفيديا، لم يعد هناك ما تخاف عليه من غضبة الأودية أو اشتداد العواصف، أو حتى كارثة ما قد تلحق بهذا البسيط المبعد الذي تتواجد ضمنه، لقد سقطت أزقّى، الإمارة الوديعة التي عاشت داخل منحنيات التلال الصلصالية، ولا شيء بعد أزقّى سوى الفناء المحقق،

سقطت إمارة الوداعة دون أن يرثيها شاعر جوال ممن كانوا يأمّونها مدفوعين بقوة القول في زمن التهجئة ومحاولات تأسيس اللغة الأخرى.
صحيح أن فاتنة الهضاب لما تفقد أملها بعد، ولكن من يحمل إليها طبيعة غدها وشيخ متنبئي أزقّى "يصل" قد قضى ولا ملاعب للأحلام بعده؟ ومن خواطرها أيقنتَ أن لكل إمارة عرّافها ولم يكن العرّاف أخمار القابع أمامك استثناء.
أما راوي الكهف فلم يكن وحده من أخبرك عن إمارة أزقّى، فهو ربما عرف ماضيها السحيق عكس متأخر عصورها، فبعد عهد اسفيديا بأحقاب وأحقاب عاودتْ "أزقّى" أو "أوزكي" أمجادها، صارت إمارة لبني مسرة جيران الرستميين أو بعض أتباعهم لا تدري، والذي تدريه أن أزقّى " أوزكي" تقع قرب "عين الحجر" بضواحي مدينتك "سعيدة" وهذا كلام ربما أضفته إلى معلومات الراوي إن شاء أو احتفظت به.
صار جيش حماية اسفيديا كله من التيمطلاسيين كما هو حال حرسها وخدمها، بحيث لم يحتفظ لها من إمارة أزقّى بغير تاودا الجارية الأمينة وهي كل عزائها، ثم حارسها "مغر" الذي رافقها.
وعلى عجل زار أطلس المعسكر فأذهله أن تأخذ البئر الوحيدة الكائنة هناك كمصدر للشرب والسقاء اسم اسفيديا تيمنا بسيدة أزقّى السابقة التي قابلته دون أن تعتزل تحفظها وطلائع شحوب لاتزال تركب محياها فطبعت ملامحها الحنطية ببُعد أخر لا يدري أطلس كيف يحدده.
وأثقل الحزن كلماتها رغم ما حاولت أن تضفيه على صوتها من سلاسة لكيلا يظن بها أنها تستدر شفقة ما، قال أطلس:" ولكن ما الذي صيّر أمرك إلى ما أرى؟" وتنهدت:" وتسألنـــي؟" وهرب بصره إلى بعض مرافقيه ممن يقفون قريبا منه وقال:" أعرف أن ما يغضبك هو عدم سماحي بإعادتك إلى أزقّى مسقط رأسك"

"فعلا هو بعض ما يشغلني لكن ثق أنني سأعود إليها يوما لأجدها وقد استعادت عافيتها" وقلت في نفسك:"ليت اسفيديا عاشت إلى أيام بني مسرة وإذن لكانت محقّة في تهديدها وتفاؤلها" أما أطلس فقد ضحك من كل أعماقه فتجاهلت إمعانه في السخرية وواصلت كلامها:

- مع أنكَ سمحت لغيري بالعودة !
- غيركِ كان أكثر اطمئنانا إلى العهد الجديد يا فاتنة.

وخفضت بصرها إنكارا لإطرائه وهمست في تحايل:

- وهل بقي بحوزتي ما تخشاه بعد الذي حدث؟

وأردفت قبل أن تمهله:

- بل، وبعد سقوط أمرغاد؟"

وأزعجته كلماتها فقال بلهجة بالغة الحدة:

- أمرغاد لم يصمد إلى القدر الذي توقعتُ منه ولكن ما يهمني هو عودة ذلك الثعلب، أعني أدموت نائبه، فمتى يعود من سفريته ببلاد افريش ليجد إمارته المتشامخة وقد صارت أثرا بعد عين؟

وتجنبت كشف عواطفها وهي تقول:

- لو بلغه ما حدث لطلب حق اللجوء هناك في بلاد الكبش"

ثم مررت شفتاها ابتسامة عابرة عجزت عن زرع أي شك في نفس أطلس ولو أبقاها في صدره، ما الذي تُراها ترمي إليه ابتسامة اسفيديا في موقف محزن بالنسبة إليها كهذا؟ إنه الغرور فحسب الذي لطالما ركبها، إنها تحاول ترميم كبرياء تدّعيه حين أفقده الزمن كل ما قد يتكئ عليه.

وعاوده إصراره: لماذا تراها ابتسمت؟ وبه سرح خياله لعلها تعلم أمر تعلقه بسيدة تيفريت الأميرة تهار، فحبه لها تجاوز الحدود كأي أمر خطير،

ثم اعتقد أن حدسه قد رسا عند ما تنبأ به حين قالت له وقد ارتخت نظراتها في غنج وابتسامتها ترف على شفتيها:

- سأتنازل لأ تقدم إليك بطلب، لكن على انفراد.

وعصفت بنظرته دلائل ريبة مفاجئة ما عتم أن أزالها جدّ معهود في نظراته وقد غادر مجلسهما تاودا ومرافقوه وابتدرها بقوله:

- حاضر ما هو طلبك؟

وازدادت كلماتها رقة وهي تقول:

- أن تسمح لي بالإقامة عند تهار.

واهتز فؤاده بقوة لذكر تهار، وبخواطر مضطربة هي خليط من الفرح والتخوف سألها:

- بتيفريت؟

وهزت رأسها مؤكدة:

- نعم عند أميرة تيفريت.

وكادت تضيف:

- عند تهار حبيبتك.

إلا أنها لا تريد له أن يعرف اطلاعها على أمر حبه لأميرة تيفريت، فانتظرت جوابه الذي جاء:

- ولكن سترحلين إليها تحت عنوان ماذا؟

وبدورها ابتسمت اسفيديا في خبث وقالت:

- أعرف أنه يخيفك اجتماع امرأتين لكل منهما ثأر عندك؟

واتكأ على رمح خشبي كان بيده وقال بين ابتسام وتنهد:

- ماذا أفعل وكل أمر يتعلق بتهار إلا وتجدين ثقتي أسبق إليه من ريبتي؟

وكادت ترقّ إليه وهي تغالب حيرتها، إذ كيف تقيم عاطفة حب جياشة قد تبلغ حد الانخداع بجوار قسوة كالتي تحلّى بها لحظات الهجوم على أزقّى؟ لم يخطر ببال اسفيديا أن زيارة أطلس تتجاوز الشوق لرؤيتها، لقد توقعت أنها اندفاع منه يحدثه في نفسه جمالها بين الحين والأخر، سيما وأن الزيارة في الغالب تتم ليلا، صحيح أنه كان أثناءها يخلو إلى قادة حاميته، لكن الأمر لم يصل، في روعها يوما، إلى ما بلغها عن طريق تاودا: - أحد أفراد الحامية هو من أخبرني يا سيدتي.

- وما المناسبة؟

وهربت عيناها إلى الأرض:

- إنه، إنه يتودد اليّ.
- وهل في إمكان قبائل الموريين مهاجمة تيمطلاس حتى يثير هذا الاحتمال تخوف أطلس؟
- وما المانع في نظر سيدتي؟
- أعني بُعد المسافة والموسم ماطر والعواصف غير مستقرة؟؟

ومن خارج سياق الراوي الأول قفز العرّاف أخمار منتفضا وهو يقول:

- لقد بزغ القمر إنه ينتظر منا وقفة صمت وإكبار، توقف أيها الراوي، قوموا في غير جلبة أرجوكم.

ونحو بوابة الكهف استدار العرّاف بكل قامته شبه المربعة، في حين انشده الجميع لمنظر القمر، كان "قدو" و "را" مشدودين إلى المشهد بقوة، أما الحسناء الحنطية اللون، المعروفة عندك بالدخيلة فلم تغير إلا قليلا من وضع جلوسها، وإن تطاولت بقامتها دون أن تقف تماما، وإلى أسفل طأطأ

رواة الوادي رؤوسهم في غير سجود معلن، ولم تصدر عن أحدهم تمتمة أيضا، كانت حركتهم استغراقا روحيا وحسب، ذلك في حين اضطر زايطا إلى التنقل نحو فوهة الكهف لمعاينة القمر حيث وقف فاغرا فاه كما لو أنه يشاهد مذنّبا طارئ الظهور يهبط من السماء.

وبدا وكأن الجميع يربطهم بالقمر سر ما إلا أنت الذي أخذت تتطلع إليه وكأنك تراه لأول مرة، إن هالته ـ وهو بأعالي الوادي ـ هي عكسها خارجه في مدينتك مثلا، إنه هنا ـ في روع سكان الوادي ـ لايزال أنموذج الجمال الكلي، وهو نقيض صورة الحجر والتراب التي بلغتك عنه في زمانك، إنه البهاء في أقصى صفائه، تبا لرواد الفضاء الذين جعلوا القمر مرادفا للكواكب الترابية فقالوا إنه عبارة عن جبال وأودية لا أكثر، وبذلك استرقوا منه إضافاته الجمالية، قتلوا صفة البهاء فيه على شفاه العشاق، إنك لتغبط أهالي الوادي نظرتهم العذراء إلى القمر سيد أنوار الليل.

فجلاسك لا يشاركونك نظرتك الترابية إلى القمر، فضلا عن ما يضفونه عليه من الأسرار التي تجهل كنهها، وإلا ما الذي دفعهم إلى اللواذ بكل هذا الصمت في استقبال طلعته؟

كان صباحا غير صباحك ذلك الذي غادرت فيه اسفيديا مربضها مبكرا على غير عادتها، ولم يتقدم منها كبير الحرس للسؤال كما توقعت وكأن ملاطفة النسيم الوافد من أعماق الشمال لشعرها غير المرتّب قد ألهته عن السؤال، بل وأمهل عينيها حد الارتواء من مناظر طبيعية غادرها الجليد تباعا بعد طويل حصار، صغار الشجر تحاول أن تستفيق من غفوتها الموسمية بجوار مخيم اسفيد الذي أخذ يتسع لأقوام الجيتول، والمور الوافديْن عليه في انتجاع مؤقت قبل أن تستهويهم حياة الترحال عبر النجود العليا أو بسائط الجنوب الممتد، كان الضباب قد انزاح إلى غربي التلال، والمطر تراجعت منذ البارحة زخاته، واسترق ضياء باهت مجهول المصدر النظر إلى المخيم، وباتجاه الأحراج غادرت طلائع القناصين،

أما جالبات الحطب ومحترفات القطف فقد تخلل مسيرهن حراس يرتدون جلودا شبيهة بأزياء رجال الصاعقة، إنها في الحقيقة جلود نمور غالبا ما يختص بلبسها عسكريون.
وقد سر اسفيديا أن معظمهم يمرون بها لتحيتها من باب اللياقة، وكانت قد ارتدت معطفا من جلد ثور أشقر الكتفين بعد أن اتخذت من أظلافه أزرارا على عادة نساء "طرف النخيلة " وربما غيرها في زمنها.
بينما أوقد الخدم، منذ خروج اسفيديا، مجموعة من النيران خارج المخيم بشكل دائري وكأنها دعوات نجدة، وليس من عادة اسفيديا مغادرة المخيم في باكر الصباح إلا في المواعد الدينية التي غالبا ما تقام بجوار البئر التي أخذت تحمل اسمها، فحول النيران تنعقد أبعاد طقوسية احتفاء بالمياه الجوفية فيما يبدو.
وما أن بلغ الراوي الأول هذا الحد حتى قفز إلى ذهنك عيـــد " سيرس " الديني الذي قيل إنه كان يُحتفل به شتاء، فتذكرت ما قام به يوغورطا في مثل هذا العيد ضد الضباط الرومان في عام 108 ق م، لكن هل عرف سكان اسفيد الزراعة في زمانهم المبكر ليحتفلوا بإلهة الفلاحة سيرأس على دأب الأفارقة؟ ربما، تساءلت في سرك، اسفيديا في وقفتها تلك لم تكن لتشاطرك تساؤلك ولا فعل ذلك راوي الوادي الذي إن لم يجهل طقس سيرس فهو قطعا لا يحمل فكرة ما عن أمر يوغورطا الذي جاء لاحقا له في الزمان، فخيال حسناء أزقّى كليا منصرف نحو أمجاد إمارتها التي تقوضت بفعل أطلس.
كانت أزقّى قطر التلال الصلصالية الوسطى، واعتقدتْ لزمن طويل أن الموقع الوسط الذي تحتله بين تيفريت وتيرسيف شمالا وتيمطلاس جنوبا ثم تاودموت غربا أبعث على الدفء لها أكثر من غيرها، ونسيتْ أزقّى

يومها أن الدفء فقط هو ما توفره الذات، أما خارج الذات فلا توجد إلا الأخطار، جدة اسفيديا ـ التي قضت ضمن موجة من طاعون ـ

حدثتها غير ما مرة عن أقوام قيل إنهم مروا أثناء طريقهم من هنا قبل نشأة مواقع الاستقرار هذه، جاءوا من الشرق ومن الجنوب دون أن توقف زحفهم المتقطع عواصف الموسم الماطرة وإن أفقدتهم الكثير من رفاق الرحلة.

أما مضايق البحر كعادتها، فما رحمت معظم من وفقوا إلى بلوغها، ولا تمكّن من اجتيازها، في كل مرة، إلا قلة منهم باتجاه الشمال حيث خيمت بجبال الضفاف الأخرى على غرار من سبقهم من سكان "تيغنيفين" [تعني البِرْكتين] و"ليتورين"[بالمغرب] أولئك الذين شكلوا أصل الإنسان في الضفة الشمالية للبحر على ما يُقال.

ومرة أخرى كان على الراوي أن يثيرتساؤلك لأنك لم تكن تعرف أن للهجرة عبر البحر كل هذا العمق من القرون ومن المخاطر، ولم تكن تدري أن البحر قد أعلن الحرب على لاجئيه منذ زمن يتجاوز أجيال جدة اسفيديا حتى لكأنه يتشبث بقاعدة خلو ضفافه الجنوبية من البشر.

الشمال إذن هو منتهى الرحلة دائما كما أكدت الجدة لحفيدتها، رحلة أقوام الشرق والجنوب التي انبعثت من تحت أكوام الجليد أثناء انقشاعه، أو برزت من أديم الأرض فور هدنة العواصف الماطرة كالفطريات تماما، إلى أن ترسخ اعتقاد لدى اسفيديا يعيد أصل الأقوام البشرية إلى الجليد والمطر، فهما قد يرسلانها إلى الحياة ثم يوفدانها إلى الموت عبر شدة البرد أو الغرق، وما هجرتها المفتوحة إلا تعبير عن رغبتها في الحياة بالوصول إلى أرض لا جليد فيها ولا مطر ولا صقيع كما ظلت تعتقد.

ومع الشروق تحركت اسفيديا باتجاه البئر المقدسة حيث الحفل الديني شبه ممتع بالنسبة إليها لما يتخلله من رقص جمعي يشارك فيه كبار ضباط

الحامية حتى، صحيح أنه أثناء الرقص قُدمت طرائد قنص كقرابين إلى حماة البئر من الشماريخ التي أضفى الإحساس بوجودها على المكان رهبة من نوع ما رغم عدم رؤيتها بالعين المجردة، لكن اسفيديا ظل يخيم على ملامحها انقباض.

وفي سرك استعدت كلمة "الشماريخ" التي تعني فصيلة العفاريت في لغة بني ورسيفان، ولعلها تعود إلى لغات الجيتول الأولى، فهل هم من أعطاها جبل الشماريخ الذي ـ وإلى عهد قريب ـ كان يُنظر إلى قمته كمأوى لطائفة من العفاريت أوكل إليها الحفاظ على ارتفاع حرارة مياه النبع المعدني المنساب بأسفل هذا الجبل؟ وقد صار حماما يُعرف بـ"عين ورقة"[بجبال القصور]؟

وإلى هنا عاودت النظر إلى زايطا الذي رغم استمراره في إذكاء النارلايزال يحتفظ بهيئته البشرية لحسن الحظ، وحين عدت بتفكيرك إلى الراوي ألفيته يقول:" ولكن اسفيديا لم تتنازل لتشارك حلقة الرقص تمايل أفرادها بل فضلت أداء الشعيرة بعيدا كدأبها رفقة تاودا، فأيام المتعة الجماعية قد ولّت تباعا في نظرها ولولا الواجب الديني ما كان لحضورها معنى تقره.

ومع فنائها شبه الكلّي في أجواء الطقس التي خيمت على المكان، ظلت اسفيديا دائمة الارتياب في قدرة أرواح البئر على إنجاح خطتها لاسترداد أمجاد أزقّى، الإمارة التي اغتيلت فتوتها على حين غرة من قبل أطلس حين أعدم محاربها الكبير أمرغاد وخلّف نساءها في وضع اللاجئات، وأنّى لإلهة البئر أو ساكنيها من العالم الأخر من الشماريخ أن يعيدوا ما تقضّى؟

لم تكن اسفيديا تعرف عن نفسها كل هذا الحقد الذي أصبحت تكنه لأطلس، بل لقد كانت ذات قلب خلو من الحقد تماما إلى أن أحدث أمير تيمطلاس الكارثة بأهليها وبإمارتها فاتقدت رغبتها في الانتقام على نار

هادئة لما يحن بعد أوان تفجيرها، وبكل حقدها هذا تقدمت من ساكني البئر بقربانها الضخم ممثلا في جاموس حديث عهد بالاستئناس وهي تتمتم بأدعية مبهمة عمدا.

وكان الجاموس في الواقع هدية من أحد مروضي الأبقار الذي استأذن في ذلك أطلس، ومرة أخرى زفت إلى نفسها تهنئة مسبقة، لقد فاق ذكاؤها فطنة الجميع بمن فيهم أطلس المغرور، سترحل إلى تهار بتيفريت ليقع بعدها الطوفان على تيمطلاس، وتعبيرا عن نجاح مسبق ابتسمت في وجه تاودا وهي تمسح بالمدية الحجرية على ذراعها تبركا بدم الجاموس الضخم بعد نحره.

وقد كانت تاودا هي من أشار عليها بتقديم القربان لحلم رأته في نومها:" رأيت يا سيدتي وكأنني بلغت البئر المباركة لجلب الماء، وإذا بسيدة نورانية الوجه والأطراف قد صعدت منها محمولة على عرش من ذهب وهي تقول:

- لن أمكنك من جلب الماء إلا بعد أن تقوم سيدتك بنحر قربان على أعتاب عرشي.
- ولكن من أنت؟

سألتها تاودا فقالت:

- أنا صاحبة البئر المباركة.

وأكدت تأودا لسيدتها أنها: قالتها ثم اختفت في لجج البئر ضاحكة وأن أصداء ضحكتها لتتردد بسمعي لاتزال" وشدت اسفيديا على يد تاودا بقوة وقد أخذت عيناها تتبللان بالدموع تأثرا، ثم أمالت رأس الوصيفة إلى ركبتها وهي تقول بحنان دافق:" آهٍ، يا تاودا لم يتبق من عالمي الجميل إلا أنت"

.

الفصل العاشر
وحشة الدفء

تناول الراوي الأول جرعات من كوب السائل الطبيعي ليشعر العرّاف بإحالة الخبر إلى راو غيره، كان القمر بالأفق يستأذن في الرحيل، فذكرتك لحظات قرب أفوله بموقف الخليل إبراهيم عليه السلام إزاءه، وأحنت الحنطية رأسها نحو العرّاف في حديث شبه صامت ظننت أنه قد يتعلق بك كغريب يشاركهم سمر الكهف لأول مرة، وبدا أن العرّاف أثناء الحديث قد سمح لأصابعه مرة أخرى بأن تعبث بواجهة صدرها ونحرها إلى أن جاوز المشهد في نظرك منطق التبرك هذه المرة، ولعل الرجل كان في حالة نوم أو تناوم كعادته، أما القمحية فقد انداحت مقدمة جذعها الأعلى نحوه طواعية وفي غير تحفظ إلى أن خشيت أن يسمح لهما الطقس الكهفي بممارسة أي سلوك لا تقره أعرّافك بوجه علني على هذه الصورة، كان إعجابك يشتد كلما استأنفت النظر نحوها، إنها من فصيل نسائي أخر

مختلف ذي سحنات ضخمة، لكن شكلها مع ذلك حافظ على لطافته إلى درجة الإغراء، الراوي الثاني يبعد كوبه عن مجلسه ربما استعدادا للحديث، و"قدو" يعيد مسح رمحه الخشبي كما لو كان يتأكد من سلامة مقدمته العظمية.

لا أحد قد دعاه نوم أو شعر بإجهاد إلا العرّاف، حتى أنت يبدو أنك قد أخذت عنهم مكابدة السهر، بيد أن الغريب في روعك هذه المرة أن يكون الراوي امرأة واضحة الاسمرار ممن اصطحبن الحنطية إلى الكهف قبل حين، قالت المرأة الراوية:" عاود أطلس تفقد مخازن السلاح قبل الانطلاق على رأس مشاته في حملة استكشاف وقنص جديدة بعد أن أشرف بالأمس على حفل تدجين جاموس بري برفقة قائد النبال"ريغ"

وقبل أن يتحرك موكب القنص أوفد أطلس قيّمة جواريه لتصحب اسفيديا في رحلتها إلى تيفريت تحرسها مجموعة من المحاربين، بل واختار حصان أمرغاد وسيلة لنقلها لولا أنه استبقى تاودا رهينة عنده مدركا ما تعنيه تاودا لدى اسفيديا، فلا أنفس من تاودا قد يعيد اسفيديا إلى تيمطلاس.

ورحلت اسفيديا يتلاطم بداخلها شعوران: شعور مفرح كون حيلتها قد انطلت على أطلس وها قد سمح لها بالرحيل، وشعور مخيف تتوقعه في إخفاق مسعاها ولو أن عواقبه ستكون أقل ضررا عليها وهي خارج نفوذ تيمطلاس، رحلت اسفيديا تتأبط بين جوانحها سرا رهيبا سوف لا تفشيه إلى الأميرة تهار، كما أنها لم تفشه إلى تاودا حتى ففي افتضاحه موتها وانطفاء الحلم.

موافقة أطلس على رحيلها كانت موقنة منها مادام في الأمر تهار، ففي رحيل اسفيديا عربون ثقة قد يمحو آثار الاعتداء الذي بدر من أطلس تجاه تيفريت يوما ما.

مغامرات الاستكشاف عادة لا تخلو من خطر كهجوم وحش مفترس أو انشداه أمام شكل حيوان حديث الظهور لما تستضفه حظائر الإمارة بعد، رجال أطلس الموكلون باستئناس الحيوان أشداء وفوق ذلك مهرة ورماة بارعون، لا تتوانى نبالهم في إسقاط أسد جسور أو حتى نمر يتخذ من أعالي الأيك مربضا، أما الثيران البرية والبقر الوحشي والغزلان فلا يكلفهم اقتناصها كبير عناء، غير أن ما استوقفك في ما ترويه الفتاة السمراء عن عالم القنص أن حديثها عن الخنزير لم يكن وديا، فهل كان منبوذا عندهم كما سمعت؟

كان "ريغ " قائد النبال أو جبار غابة "تافسور" كما يحلو لهم تسميته، قد اقترنت سيرته بمهاجمة أشرس ذوات المخالب وأفتك الكواسر، إلا أنه منذ اليوم يبدو غير رائق المزاج لأمر ما، ولا يكتسي ذلك أي سر في نظر زملائه والأمير أطلس شخصيا، فتبرمه أثناء الطريق إلى الغابة لا يعدو كونه تحضيرا نفسيا غالبا ما تسبقه توثبات رياضية لاستجماع قوته العضلية.

وفي مقدمة الزحف كان ريغ يقوده اشتداد سمرة وقد أخفى اختلاط شعري لحيته ورأسه معظم ما يمكن أن يتسع له وجهه، وكان رمحه الطويل يسبق واسع خطواته، أما كيس نباله فقد استقر خلفه على كاهله، سار متأبطا قوسين، إحداهما فارعة الانحناء والثانية ذات حجم صغير، ولعل في اختلاف حجميهما تحديدا لمسافة النبال حسب الحاجة، كل ذلك دون أن ينسى بضع وجهينيات قد تصوّب إلى خصم غير حيواني إن اقتضى الحال، رجلاه تنغرزان بقوة ضمن كثبان الجليد التي لم تنقشع إلا أجزاء منها استجابة لما توهمه من دفء يكون قد صاحب الصباح على غير عادة، طوال رحلاته لم يصادف ريغ قطيعا من حمر الوحش، وهو ذاته لا يدري

لماذا تلتعج في صدره أمنية من هذا النوع، ربما فقط لأن اصطيادها يثير أقصى مشاعر متعته، أو لأن جلودها المضلعة يستهويه منظرها.
المتعة؟! هل هي وحدها ما كان يدفع الشاعر الجاهلي للإمعان في تصوير واقعة قنص هذا الحيوان عكس غيره؟ تساءلتَ في سرك دون أن تثير ما ترتج له رواية المرأة.
لم يتحول سير ريغ إلى عدو وإن اقترب منه كعداء معروف، مما جعل مساعديه ذوي القامتين القصيرتين يتخلفان عن اللحاق به، كان يناديهما بالقزمين، وإلى هنا التصق بصرك تلقائيا بزايطا ثم تراجع خوفا من إثارة أنتباهه، ولمساعدة قائدهما تأبط الأول وكان يدعى "مكــن" قربة ماء قد دُبغت من جلد جدي غزال، بينما حمل الأخر وهو "واك" بعض الثمار القابلة للإطعام عند الحاجة، ومن بين رجلي ريغ قفز ثعلب مفلفل الفرو لشدة الصقيع منطلقا عبر السفح، فلم يكلفه إسقاطه أكثر من إرسال نبل واحدة ومن القوس ذات الحجم البسيط أيضا.
والواقع أن ما أربك الثعلب هو صيحات ريغ التي ارتجت لها واجهة الجبل فرددت نبراتها في رجع مخيف، وقد أرفقها أطلس الذي كان قريبا منه بتنهد مسموع استله من أعماقه لأنها ذات الصيحة التي لا شك أنها أرعبت جيش القائد تيرسين أثناء الهجوم على تيفريت إبان الخريف الماضي، فحز في نفس أطلس أن تتحول زمجرة ريغ من إخافة جيش قوي إلى إرباك مجرد ثعلب، ولولا الحاجة إلى هذا الحيوان وإلى فروته بالذات لأصدر أطلس أوامره إلى الكلاب بإتلاف جثته التي همدت منذ حين.
وبمعزل عن خواطر أطلس واصل ريغ خطوه كما لو كان معلّقا بمنحنى تلة، وقدماه ترسمان على مواقع الجليد آثارا بارزة، وخلفه سارت بقية فريق القنص وهم في حالة تأهب لإطلاق السهام، بينما كاد يتمركز موكب أطلس بمنتهى المنحدر، وفجأة ارتمى ريغ بكل ضخامته على الأرض

مشيرا على زملائه بالاختباء، لقد تأكد من أن الرؤوس التي برزت من كهف كانوا بصدد بلوغه ليست برؤوس أبقار برية كما توقع في أول الأمر بل هي رؤوس بشرية قد أخذ أصحابها يطلقون إشارات استعصت عن فهم ريغ، أهي دعوات ترحاب؟ أم مقدمات صدام؟

ولم يجد ريغ بدا من استراق التفاتة سريعة نحو أطلس وكأنه ينقل إليه علامات استفهام تثقله بشأن ما يرى، غير أن الأمير كان أشد حيرة من جبار الغابة الذي رسم تكشيرة مخيفة فهم منها القريبون منه أنه بصدد إطلاق صيحته المعروفة التي أصبحت تعرفها الوحوش في مرابضها، والطير في عششها، وبإشارات من ذراع أطلس فهم ريغ أن الرؤوس لا تقتصر على الكهف الموالي بل صارت تتطلع من كهوف عدة، فبدا وكأنهم وقعوا في كمين مُبيّت.

أما "مكن" مساعد ريغ، فقد سار مندفعا وكأنه يحتمي إما بقصر قامته أو بسر هذا السائل الذي يحمله في الجرة، إنه ماء من بئر الأرواح، وإن علمتَ أن الشماريخ هي الأرواح فقد أخفقت في ربط علاقة البئر بالإلهة سيراس، لأنه ما من أحد من رواة الوادي مر على ذكرها فلتحتفظ بسرها لنفسك إذن.

وبإماءة منه سأل أطلس طليعة فريقه الذي يقوده ريغ عما إذا أصبحوا محاصرين، فتلقى إشارة من رأس ريغ لم يتمكن من التقاط فحواها لبعد المسافة الفاصلة بينهما، الكهوف الأمامية ترسم رؤوسا من ذوات الأحجام المتباينة وكأنها تتعمد إخفاء الهياكل البشرية التي ينطوي عليها أصحابها، بل إنها لا تكاد تظهر إلا لتختفي من جديد وبالسرعة ذاتها:" ماذا يراد من وراء هذا؟!" في قرارته تساءل ريغ وهو يحتمي بجذع شجرة خروب قد امتدت إلى أن تنافرت أغصان أعاليها فاستبدلت بها دغلا لفّ أسفلها.

وخلف ريغ انحنى مساعداه "مكن" و "واك" بينما ظلت حميته القتالية تستنفره إلى أن أخذ يعيد توثباته إلى درجة أشعرت رفيقيه بقرب موعد المغامرة، لولا أنه ظل يخشى عدم تطابق رغبته في الهجوم مع ما يفكر فيه الأمير أطلس، فأطلس دائم التفكير في كيفية تُخضع هذه البشريات الجديدة، إذ لا يمكن إغفال أمرها باللجوء إلى مواصلة القنص الذي تعوّد عليه بهذه التلال المشجرة منذ أمد بعيد وما علم يوما أن بها أدميات" فمتى وكيف صارت الغابة مأهولة؟ وبمن؟!" تسأل الأمير جهرة دون أن يسمعه مرافقوه، وخشية إغضاب أطلس وببرودة أعصاب استقبل ريغ أولى النبال التي تساقطت حوله، بحيث لم يزد على أن التفت باتجاه أطلس الذي أمعن في تأجيل الهجوم كما اعتقد ريغ، قدرة أطلس على الإبصار فاقت دائما قدرة من بجواره، ولذلك ربما فات ريغ أن الرؤوس المشرأبة من الكهف تتوسّطها هيئة امرأة ذات جدائل قد استلقت على صدرها، وهو فعلا ما يجبر الأمير على إرجاء التحرك" يا إلهي لماذا تطاردني أطياف الغانيات من كل صوب؟" تساءل أطلس وأضاف:

- التيفريتية تهار ثم الأزقية اسفيديا وأخيرا ابنة تافسور!

تحصن ريغ ضد النبال التي يترى تساقطها من حوله، وفي كل مرة يلتفت نحو الخلف باتجاه أطلس وكأنه يُشهده على خطورة ما يواجهه، غير أن أطلس ظل متجاهلا شكواه، وغلب على اعتقاد ريغ أن موقف أميره ينم عن اطمئنان إلى حنكته في مداراة القذائف التي يتلقاها ـ فريغ مهما تفاقم الوضع ـ لن يموت جراء مناوشات عديمة الدقة كهذه وهو مكمن زهوه، وريغ لكم كان سيد الميدان في حروب تيفريت وأزقّى، فضلا عن مواجهة زحف الموريين وحتى الجيتول على أيام الملك تيم عاهل تيمطلاس والد أطلس قبل تقاعده صحيا.

والذي يعجب له ريغ أنه ما من حرب خاضها رفقة أطلس إلا وكانت هناك في الناحية المقابلة امرأة تجسد سر الاستماتة في القتال، وضمن دائرة ضيقة هي كل ما يحيط بريغ تركز تصويب النبال حتى لكأنه المقصود بها لوحده، واستطاع "واك" أن يتراجع نحو موقع أطلس في عدو شديد أربك رماة الكهف وقد غمرته نبالهم، فأوصل إليه معاناة ريـــغ و"مكــن" ورجال المقدمة، وبذلك افتك منه إشارة إلى حملة النبال بإرسال موجة واحدة منها على كهفين جانبيين فاعترض "واك" بقوله:

- سيدي، ولكن الكهف الأوسط هو قاعدة النبـــال المعادية؟

ورمقه أطلس بنظرة نارية يخشاها أفراد التجريدة ومع ذلك أقنعه قائلا:

- مركز المعاينة بأعلى الجبل هو من نصح بهذا الذي أمرتُ به يا "واك"

ورغم أن "واك" انحنى برأسه في إشارة اقتناع فقد كبرت حيرته أكثر، كيف؟! وهو من كان الأقرب إلى كهوف الرماة؟ ما السر في إغفال أمر الكهف الأوسط وهو الأكثر ضراوة في الدفاع؟

النبال المضادة يبدو أنها أفلحت في إثارة لغط بالمواقع الدفاعية، بل لقد تراخت حدة القذائف الصادرة عن الكهف الأوسط ذاته، مما أتاح فرصة اغتنمها العداء "واك" ليعود إلى موقعه قريبا من ريغ دونما حاجة إلى بذل فائق سرعة.

ورغم أنك لم تغادر مكانك، اختليت إلى نفسك لتسألها، كيف أسند العرّاف أخمار رواية موضوع حرب إلى امرأة؟ هل لأنها محاربة بدورها؟ وإلا كيف تُراها تستخدم معجما عسكريا في غير تلعثم؟

"واك" هذا الأدمي القصير القوام، المعروف بسرعة العدْو، لم يسترجع زمن إلحاقه بخدمة ريغ، ولا أحد يمكنه استيعاب السر في انسجام رجل في هيئة القزم مع جبار لا تكاد تخفي انحناءةَ عنقه سامقاتُ الأشجار في الغابة. وبإذن من أطلس أمطرت السهام منحنيات الكهفين الجانبيين كسابق مرة، وانتظر الجميع ردة فعل بشكل ما إلا أن شيئا لم يقع.

- هل حققنا إبادة الجميع يا سيدي؟

قال أصناك الحارس الشخصي لأطلس، فأسكته هذا بإشارة من يده دون أن ينبس لكيلا يربك تركيزه على ما يشاهده، أطلس لا يرغب في إبادة الكل طبعا عكس ما يتمنى ريغ ومكن وواك، فأطلس يود لو يعرف حقيقة هؤلاء الناس فقط وقد استقروا بالغابة دون سابق استئذان.

وفوق هذا النصر المسبق شعر أطلس بالندم، لأنه لم يستنفر كل قوات تيمطلاس معه لهذا اللقاء غير المرتقب، لقد حسب الأمر فسحة قنص وحسب لا يتكشف عن مجابهة ما يشبه جيش محصن كالذي يمثل أمامه الآن، ودعا أطلس بقربة ماء أتقنت عاملات معمل الدباغة صنعتها من جلد غزال فأخذ يشرب، وفي تلك الأثناء انغرز في عضله سهم في شكل قذيفة غادرت أحد مكامن الجبل العملاق فتراخت أصابعه عن الإمساك بالقربة، ثم سقط في مكان سرعان ما أخذت دماؤه تنشئ به ما اعتقد أنه بركة صغيرة من دماء.

ومن حينها لم يعد قادرا على الإبصار وقد أظلم الجبل في عينيه إلى جانب ألم يعتصره، هل قُتل لشدة النزيف؟ لا أحد يدري ولا أحد فكر في الانسحاب أيضا، بل إن ريغ احتار فيمن سيقود الفرقة بعد أطلس هو أم أصناك؟

تنادت طلائع أطلس إلى الهجوم، وكان ريغ في المقدمة لقد أقسم أن يبيد من بالكهف بله، من بالكهوف انتقاما لإصابة أميره، أما أطلس فسرعان ما

أزيلت رأس السهم التي أصيب بها، ورُبطت ساقه وكان ماكسن طبيبه الخاص قد هرع إليه ببعض نبات ورمث سبق له أن حمله معه من باب الحيطة، ووضع المادة على الجرح قائلا: " هي في أصلها مقاومة لنفاذ السموم وأيضا مساعدة على اندمال الجرح بسرعة"
وإلى أيك وارف الأغصان قد استقل بالقرب من الكهف الأوسط قفز ريـــــغ وهو يصيح:

- فليخرج إليّ زعيمكم أيها الأوغاد.

وتبعه بعض مرافقيه، ومن خارج الكهف هاجمته نبال ورماح وحجارة ربما دلت قوة اندفاعها على استخدام مقاليع في قذفها مما أسفر عن إصابات، غير أن ريغ كان قد انتابه هيجانه من جديد فهمّ بالهجوم منفردا، لولا أنه استدرك متسائلا عن صحة أطلس الذي كان قد نُقل إلى منتهى المنحدر تحت وابل من سهام منبعثة من كهف جانبي سبق لريغ أن حسبه مهجورا أثناء مطاردته للثعلب، وسمع الأمير هذه المرة نداء ريغ وهو يقول:

- يا سكان الكهف ألقوا السلاح لأن الكهف الأوسط صار بقبضتي.

ولما ابتسم أطلس في تعب استبشر طبيب الأعشاب ماكسن خيرا معتبرا إفاقته دليلا على تحسن حالته بفعل عقار الرمث الذي ناوله إياه.
أما سكان الكهف الأوسط فعوض أن يلقوا السلاح كما انتظر ريغ كادت إحدى حرابهم أن تطعن عضده الأيمن لولا صلابة الشجرة التي يحتمي بها، فبدا له أن الأمر كله تحذير إذ أن إصابته ليست بممتنعة إلى هذا الحد عمن يقارعونه بكل هذه الدقة في التصويب، وبأسفل المنحد، وإثر فترة الإغماء، قال أطلس لطبيبه ماكسن:

- كيف ميّزوني من بينكم؟

ولأن الإجابة قد تتجاوز حقل اختصاصه تقدم أصناك الحارس العسكري ليجيب:

- بباقة الريش التي تضعها على رأسك، بها كنت ولاتزال مميزا يا سيدي، التاج يا سيدي.

وعلق أطلس وكأنه يغرغر:

- صدقت، فنحن دخلنا الجبل للقنص كعادتنا وليس للحرب.

ما يخيف الطبيب ماكسن أن صحة أطلس لما تغادر أطوار الخطر بعد رغم حالة الاستقرار التي يعكسها مظهره وبعض مشاركته في الحديث، وما كسن لم يكاشف أحدا بتخوفه حفاظا على رباطة الجأش العام، وعز عليه أن يموت أطلس، الرجل الذي دوّخ الشمال لأول مرة حين كاد أن يضع يده على إمارة الشلال الدافق تيفريت، صحيح أن طموح أطلس قد أجهد تيمطلاس، فهو قد فكر في الزحف على تيغنيف ذاتها، وبعدها على بلاد افريش جنوبا، بل ولم يضع تيوت واحة النخيل خارج دائرة أطماعه رغم بُعد المسافة وقساوة المناخ، ومع ذلك هو ذا يسقط على مشارف إمارته، وبسهم مجهول أيضا لما تتضح بعد هوية من أطلقه، ربت ماكسن على جبين الأمير المستلقي على جلد أيل، وعيناه ترمقان سحنته في إشفاق، فأطلس ــ رغم عناده ــ ظل محبوبا لدى مقربيه وجنده لا لشيء سوى لأنه عنوان إمارة، وربّان إبحار إلى مجاهل يشفق من نشدانها غيره.

واتجه ماكسن ببصره إلى أعالي التلال حيث يواجه ريغ موجا من النبال والحراب والحجارة، وقد خان ماكسن بصره بحيث لم يتمكن من رصد ريغ وهو يسقط بفارع قامته محتضنا جذع الشجرة العجوز، وخرت قواه نتيجة قبضة من نبال تناوشته من الكهوف القريبة منه كلها، فأغمي عليه بدوره ولايزال، وخسر مرافقيه إلا "مكن" و"واك" وقد مكنهما قصر

قامتيهما من النفاذ إلى أسفل الجبل حيث الأمير أطلس، فأشارا على أصناك بالانسحاب رغم حالة الأمير تلافيا للخطر الداهم قائلين:

- إن سقوط ريغ سيسمح لهم باكتساح مواقعنا في هجوم عام.

كانت صدمة كافية لريغ لكي يسترد كامل وعيه بعد استفاقته من الاغماء ليجد عند رأسه أدموت نائب أمرغاد، قائد قوات أزقّى المنهارة وهو يبتسم في شماتة، نعم أدموت أو الثعلب الماكر كما يسميه أطلس، وتحت هول المفاجأة قال ريغ بصوت متألم وأنفاسه تندفع:

- عجبا، كيف قُدر لي اليوم أن ألتقي ثعلبين أحدهما تمكنت منه والأخر تمكن مني؟

وابتسم أدموت وهو ينحي حربته إلى جانب وقد لحقت به مجموعة من أفراد جيشه، ومن داخل ألمه قال ريغ مخاطبا أدموت:" ألم تكن ببلاد افريش كما أوهمتنا اسفيديا؟"

" ولماذا أكون هناك؟ ألأفسح لكم مجال الاستيلاء على أزقّى؟"

وحاول عسكريان أن يستنهضا ريغ الذي يبدو أن قواه قد خارت نهائيا وأدموت يقول له:

- ستظل رهينة عندنا حتى يمكننا الانتقام لاي سوء قد يلحق باسفيديا هل فهمت؟

وعلى مضض قال ريغ:

- ألم يبلغك أنها رحلت إلى تيفريت حيث تجيرها الأميرة تهار؟

وأظهر أدموت انشراحه للخبر وهو يقول:

- لكم هي ذكية بحق تلك المرأة، تماما كعهدي بها.

ولأمر ما سأله أدموت عن الوصيفة " تاودا" فأخبره أنها لاتزال بمخيم اسفيد، ففهم أنه تم الاحتفاظ بها كرهينة، فقال صارخا:" سوف نعرج على المخيم للإفراج عنها" كان واك في هذه الأثناء يقطع المنحدر في عدو خاطف معروف به، وخلفه "مكن" الذي أخذ يدعوه إلى التريث مادام خطر اللحاق بهما قد زال في نظره، وواك تحمل ساقاه أخر الأنباء سوءا وهو ذلك المتمثل في أسر ريغ جبار الغابة ومن طرف من؟! من طرف أدموت الذي تأكد مكن من هويته فور أن غادر بوابة الكهف أثناء سقوط ريغ.

أي نبإ سيزفانه إلى أميرهما أطلس وهو في طور الاحتضار؟ نبأ هزيمة طبعا وعلى يد بقايا جيش أزقّى في وقت رحلت فيه اسفيديا تكتم خطتها، ممن إذن سينتقم أطلس؟ وبمن؟

وفور وصولهما أشار عليهما الطبيب ماكسن بالسكوت، لأن حالة الأمير لا تتحمل أنباء سوء كالتي سمعها منهما سيما وأن أصناك قد أقرّه على رأيه.

وبعيدا من أطلس اختلى طبيبه وحارسه ليستعرضا مؤامرة اسفيديا التي نُفذت فور فرارها إلى تيفريت، فأدموت لم يرحل إلى بلاد الكبش كما أشاعت، بل وضعته على رأس قوة احتياط أعدتها لتنتقم في الوقت المناسب، دون أن تُغفل الغابة كمكان قنص مفضل لدى الأمير أطلس، ففضلتها مربضا لكمين فاصل بعد أن اتضح لها أن اختلال القوة سوف لن يؤدي إلا إلى هزيمة جيشها وفشله في صد هجوم أطلس، وهو ما حدث، بل وهو ما يتجرعه أصناك وماكسن بمرارة، وحين قلتَ بانبهار:

- أية امرأة كانتها اسفيديا تلك.

ضحكت المرأة الحنطية الملامح وقد أجمع الحضور على النظر إليها، وقال لك العرّاف أخمار وهو يشير إليها بيده:

- إنها اسفيديا ذاتها تقبع الآن أمامك.

وصحت في استغراب:
- الحنطيـــة! هي اسفيديا؟؟!

وهز العرّاف رأسه أن نعم، ففغرت فاك دهشـــة، إنها كما حدست منذ أن دخلتْ خلف جواري الكهف، كل شيء فيها يوحي بأنها أميرة أو شبه أميرة، ولذلك ربما لم يطاوعك إحساس بداخلك على أنها مجرد جارية كالأخريات، وانتصرت إلى تخمينك حتى وأنت تسميها بالدخيلة على الوادي، ورمقتَ "قدو" بنظرة عتاب لعدم مكاشفته إياك بسر كهذا وتركه الأمر للصدفة، وكاد "را" أن يقهقه شعورا منه بما يختمر في ذهنك إزاء قـــدو، وقلت:
- ولكنها لم ترحل إلى أزقّى رغم انتصار حليفها أدموت؟

فقال العرّاف أخمار:
- سترحل بعد انتهاء ضيافتها لدى الأميرة تهار.
وبعد أن أذن لـــه العرّاف قال قدو، وكأنه يكفر عن خطئه نحوك:
ـ أما الفتاة التي تستمع إلى روايتها الآن، فهي من رآها أطلس بالكهف الجانبي تحرض محاربي أدموت على المواجهة.
وفحصت سمرتها الداكنة بنظراتك وقد تذكرت ما اعتراك من غرابة أمام إلمامها بالمعجم العسكري، وابتسمت المرأة الراوية استزادة في الترحيب بك، فقلت ضاحكا هذه المرة:
- لم يبق إلا أطلس وأدموت، ألا يوجدان هما الأخران ضمنكم في هذه الحلقة؟

وضحك الجميع بمن فيهم العرّاف أخمار، دون أن تخرجه شدة ضحكه عن توازنه المعهود، بينما حافظ صوت زايطا على نبرات متفردة ضمن

الأصوات التي تقاطع ارتفاعها إلى أن تلاشى بدخول الجارية الخضراء تارا ورفيقتها تارو، وإلى هنا أخذت تسترد مظاهر التبجيل التي سبق لتارا أن رددتها دائما بحضرة اسفيديا بحيث لم تخاطبها إلا بسيدتي.
وفهمت من كلام تارا الذي وجهته إلى العرّاف أخمار، أن موعد زيارتكما إلى الأميرة قد حان، إذ ما أن صفق أخمار بيديه حتى أخذ الجمع في الانصراف، فقد غادر رواة الكهف مواقعهم نحو الداخل، وخلفهم الجواري وقد أحطن باسفيديا، بينما تحرك قــدو وزميله" را " إلى خارج الكهف لتبقى وحيدا إلى جانب أخمار وقد قام من مجلسه معتمرا ما يشبه طاقية من جلد، مشيرا عليك بمرافقته.
وخلف تارا وتارو سرتما في صمت كحاملي جنازة رغم البشْر الذي يطل من عينيك فرحا بلقاء تهار وعن قرب هاته المرة، كان الظلام عكس علاقته بالوادي قد انحسر نهائيا، والنسيم لايزال يداعب أفانين شجر المضيق، وعواء ذئب بأعالي المنحدر.
ومصحوبا بشدو الطيور اسمعكما الشلال صوته ولو من بعيد وقد خلا ميدانه من النيران وحلقات الرقص وموائد الإطعام، وفي الطريق أنتصب الورع لول كما لو أنه في انتظاركما إذ سرعان ما أنضم إليكما.
وإلى كهف الأميرة ولجت تارا ثم تارو وقبل أن تلحقوا بهما حثثت خطاك مدفوعا بجارف شوق إلى مرأى تهار أميرة الوادي، ما أروع أن تتفحص قوامها وملامحها عن قرب، لكنك ما أن هممت بالدخول وقد حدثتك نفسك أن تهار ربما كانت بمدخل الكهف لاستقبالك حتى جللتكم أشعة الشمس وقد اعتلت شرقي الآكام فانصرفتَ نحوها في انشداه وكأنك تبارك بزوغها بالوادي، ثم تحفزتَ لاستئناف السير نحو بوابة الكهف الأعظم.
لحظات يسيرة فقط تفصلك عن تهار، وتهار لقاؤها كـــــ (الآن) الفلسفي الذي يكلّل فائت الأزمنة عادة، ويسمو على المقبل منها ليكتفي بذاته كزمن

مستقل ولو تقاطع مع تدفق التيار المندفع نحو الأمام في تؤدة وأحيانا في جنون دون أن يدركه ذوبان لأنه يتعلق فقط، وفقط بتهار أميرة الشلال الخالد.

لـكـنـك مـــا أن التفتّ إلى صاحبيك أخمار ولول القريبين منك حتى شعرت وكأن أشعة الشمس قد امتصتهما، ابتلعتهما يا للصدمة، لقد اختفيا تواريا، واستدرت متأوها متراجعا متقدما صائحا مرتعدا شبه باك.

لم تجد أحدا إلى جانبك أو أمامك ولا خلفك حتى لقد تبخر الجميع إلا أنت، ودون تفكير قادك اندفاع الصدمة التي تعتريك نحو الكهف، كهف الأميرة فدلفته بخطو واسع يا للفاجعة لا شيء أيضا عبر منحنياته ودهاليزه وأنفاقه ومماشيه، الصمت سيد المكان، ولشدة ما ينتابك من دهشة لم تتفطن إلى ما قد يختزنه الكهف الأوسط من رسوم ومشاهد صامتة، نسيت البحث عن كل ذلك حتى اسم خطاط الوادي نسيته، وبأعلى صوتك صحت:

- تهار !أين أنت؟
- تارا، تارو، أخمار، لول

ولم يحتفظ الكهف إلا بارتجاع صوتك الذي أعاد أصداءه بأمانة وبكل مخارجه الصوتية، تنهد قوي قذفت به وأنت تغادر كهف الأميرة معرجا على كهف العرّاف أخمار، وبدورها أتربته لم تُبقِ على أثر ما من ليلة البارحة إلا الرسوم التي تقدمت صدور صخوره كما لو أنها عناوين نعي بارزة، أين رواة الوادي؟ وجواريه؟ بل أين اسفيديا التي تقضي فترة استجمام بشلال الوادي؟ لماذا اختفى الجميع بعد أن أطلعوك على خفايا الشلال العظيم؟

وإلى خارج الكهفين ساقتك قدماك في وهن كمن يعيش إرهاص شلل، نحو الشجرة العجوز التي شكلت ملجأ صيفيا لخطاط الوادي الذي لم تعد

تذكر اسمه وإن ترسّخ إعجابك بعبقريته، وبمحيط الشجرة لا أحد أيضا، لقد ابتلع الوادي ساكنيه لتحل الشمس محل الجميع، ومررت مسرعا بكهف مهندسة الفخاريا للعجب لقد أقفر بدوره، ولم تطل المكوث به بحيث غادرته نحو ما يشبه طريقا قد توسط سلسلة الكهوف وضفة الوادي، وهناك ناديت بأقصى ما تتحمله حبالك الصوتية:

- " ڤدو" ألم تكن صديقا؟ أين أنت؟

أعطوني "را" فقط لأساله، أين أنت أيها القائد تيرسين؟ كيف سلّمت واديك لغريب مثلي؟

ثم أدركت أن لا فائدة من الصياح بعد أن استعاد الوادي سكينته ووحشته معا تحت دفء الشمس المرسل منذ لحظات الإشراق الأولى، أما خرير الشلال فقد ركبته لغة أخرى في نظرك غير لغة الليل التي سبق لك أن أحسنت الإنصات إليها، بينما لم يزد الوادي، كل الوادي، على أن أصبح مضيقا مهجورا لا تعبره إلا الطيور وقد ودّع عراك الوحوش وجلبتها، بل وانزاحت عنه لبوس الطقوس وأسرار الكشف التي أثقلته طوال ساعات الليل وشكلت سر أفراحه.

ولما ابتعدت باتجاه الشلال تراءت لك سيارتك وهي جاثمة لا تزال على حافة الطريق بأعالي التلة، إنها تكابد وحدة شبيهة بوحدتك، ثم عدلت عن المُضي نحوها مفكرا في العودة إلى الكهف للاعتكاف، فربما عاد سكانه إلى الظهور حينما يخيّم الظلام من جديد من يدري؟ لقد صرت تتعشّق هذا العالم الذي لا يطيق الفولاذ وتُبخّر الشمس سكانه ربما لتنيب عن نورها نيران الميدان، واستمر صياحك:

- ڤدو. را. لول. أخمار. الخضراء تيرسين. تهار. تهار. تهار.

ڤدو، أيها الصديق أين كنت؟

ثم انتبهت إلى قطعة الفخار التي تلقيتها هدية من مهندسة الفخار، فتأملتها من جديد، إنها كل ما تبقّى معك من ليلتك العجيبة تلك.

انتهى بمدينة "سعيدة" (الجزائر) في عام 2009

محتوى الكتاب

الفضاء الأول:

الـفصل الأول: بوابة الكون الأخر

الثــاني: أعراس الشـــلال

الثالـث: نيران المـــــاء

الـرابع: لحظة وقـــــار

الخامس: مذاق التــطهـّــر

السادس: عــبق الإزميـــل

السابــع: أنـــوار الغســـق

الفضاء الثانـــي:

الفصل الثامن: اسفـــيـــديـــــا

التاسع: بـــئر سـيـــرس

العاشر: وحشــة الـــــدفء